منهجُ الاستدلالِ العَقَدِيِّ عند مالك بن نبي

د. محمد علي أبوهندي السيد
أستاذ العقيدة والمذاهب الفكرية المعاصرة المساعد
قسم أصول الدين كلية الشريعة وأصول الدين جامعة نجران

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله فاتحةِ كلِّ خير، وتمام كلِّ نعمة، والصلاةُ والسلام على أشرف الخلق والمرسَلين، نبيِّنا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم، والتابعين بإحسان إلى يوم الدين، أما بعدُ:

فتأتي هذه الدراسة تجديدًا لدور أقسام العقيدة والمذاهب الفكرية المعاصرة في تحليل مشكلات المجتمع الإسلامي المعاصرة، ونقدها، والبحث عن الحلول الفكرية لها، وذلك من خلال دراسة منهج الاستدلال العقدي لدى أحد أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، وهو الأستاذ مالك بن نبي.

ولأن مصلحة الأُمة تقتضي الاهتمام بالتأصيل للمسائل الفكرية السائدة في الفكر المعاصر، والاهتمام بمشكلاته وقضاياه، وواجبنا بوصفنا متخصصين في العقيدة الإسلامية، والمذاهب المعاصرة، أن نربط جهودنا البحثية بالقضايا المستجدة، والدراسات الحديثة في العقيدة الإسلامية، وكيفية تناولها لمسائل العقيدة، ودورها في تفنيد الشبهات والمزاعم المتجددة التي تطعن في أصول العقيدة الإسلامية.

ويدخل موضوع (منهج الاستدلال العقدي) عند مالك بن نبي في إطار محاولة تقديم دراسة تسهم في تأصيل مسائل وقضايا الفكر الإسلامي المعاصر وكلها مرتبطة بالعقيدة الإسلامية، وذلك من خلال تجلية منهجه في الاستدلال بالقرآن والسنة، وما اعتمد عليه من أسس وقواعد استدلالية، وما اصطنعه من معايير في الفهم والتحليل، وما اتبعه من مناهج وطُرُق في مقام الاستدلال.

ويستمد موضوع البحث أهميته مما يأتي:

١–تسمح هذه الدراسة بإبراز الملامح العامة لحضور الأدلة القرآنية والنبوية في المشروع الفكري لمالك بن نبي. على اعتبار أن الحضور القرآني والنبوي يمثل الأصول المنهجية أو الشرعية لمشروعه.

٢–ترسيخ منهج الاستدلال بالقرآن والسنة في معالجة القضايا الفكرية المعاصرة، وموضوعاتها المتجددة من خلال بيان المنهج الإسلامي، والرؤية الإسلامية المغايرة للأفكار والأطروحات العلمانية والحداثية.

٣–الاستفادة من منهج الاستدلال عند مالك بن نبي، وطريقته في استثمار النصوص في الاستدلال، بالكشف عن ملامح منهجه وضوابطه، وتأصيله للقضايا الفكرية المستجدة على الساحة الفكرية.

ومن أهم الوجوه المعتبرة في إفراد الموضوع بالبحث ما يلي:

١–المساهمة في الكشف عن تأصيل الجوانب الفكرية لمشروع مالك بن نبي، من خلال البحث في تراثه الفكري، ومدي اعتماده على القرآن والسنة، وكل ذلك من خلال مراعاة التلازم المحكم بين العقيدة والفكر، إذ القرآن والسنة أصول وأُسس، والعقيدة والفكر بناء، وكل بناء على غير أساس فمنهار، كما أن كل بناء لا أساس له فخراب.

٢–الشعور الشخصي بالحاجة لخدمة المشروع الفكري لمالك بن نبي؛ لما ينطوي عليه من أهمية متجددة في الساحة الفكرية المعاصرة، من حيث اهتمامه بتنمية المجتمع الإسلامي وحضارته على أسس عقائدية من جهة، واهتمامه بمقاومة دعاوى المستشرقين، و الفكر المادي بأسلوب تحليلي منطقي من جهة أخرى.

٣–أزعم أن منهجية الاستدلال لدى مالك نبي، وحرصه على تفنيد دعاوى المستشرقين ومن تَبِعَهم، تُسهِم في معالجة أفكار الغلو

اللاديني في النزعات الإلحادية، والتحلل من الأوامر الشرعية، مما يمثل تحديًا فكريًا يتطلب تكوين الجانب الإيماني بطريقة تسهم في التربية العقائدية السليمة للفرد والمجتمع، وهذا لا يتأتي إلا من خلال الوسطية الإسلامية في معالجة مشكلات المجتمع؛ لأن الشبهات تتغير بتغير العصور والأزمان، مما يتطلب التجديد في التحليل والرد والتفنيد، من ثَم كانت دراسة جهود ومناهج العلماء المعاصرين في هذا المجال على درجة مهمة جداً في المحاججة والبيان لموثوقية مصادر الإسلام، وإثبات موثوثية النبوة والوحي.

٤-وكذلك تهدف هذه الدراسة إلى عدم الاكتفاء في معالجة القضايا الفكرية المعاصرة، بمجرد الوعظ، والإلقاء والتلقين، إلى التقعيد والنقد والتحليل والتأطير، وكذلك عدم الاكتفاء بالردود السجالية الوعظية على الدعاوى المخالفة إلى مراحل الأطروحات، والمنهجية الإسلامية، بمعنى عدم الاكتفاء بمجرد القبول أو الرفض لعقيدة أو لفكرة أو رأيٍ ما، سواء أكانت خطأً أم صوابًا؛ بل النقد التحليلي وعرض المنهج الإسلامي في القضايا والمسائل محل الخلاف.

وتأتي هذه الدراسة إيماناً بدور الدراسات العقائدية المعاصرة في المساهمة في معالجة القضايا الفكرية المستجدة، من خلال دراسة منهج الاستدلال العقدي لدى أحد أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، وهو المفكر الجزائري الأستاذ مالك نبي. وكثيرةٌ هي الدراسات السابقة عنه وعن مشروعه الفكري، بيد أني في هذا البحث أقصد إلى دراسة منهجه في الاستدلال، لعدم وجود دراسة سابقة عنه بهذا العنوان وذلك المضمون، ومن أهم الدراسات السابقة عن مالك نبي:

١-مالك بن نبي مفكرًا إصلاحيًا، أسعد السحمراني، ط١، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٤م.

٢-التغير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي دراسة في بناء النظرية الاجتماعية، نورة خالد السعد، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م.
٣-مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة، حسن موسى محمد العقبي، بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير، الجامعة الإسلامية بغزة، كلية أصول الدين، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، ١٤٢٦ه، ٢٠٠٥م.
٣- التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي، الطاهر سعود، ط١، دار الهادي، بيروت، ١٤١٧ه، ٢٠٠٦م.
٤-فقه التغيير في فكر مالك بن نبي: عبداللطيف عبادة، ط٢، مؤسسة عالم الأفكار، ٢٠٠٧م.
٥-مالك بن نبي حياته وعصره ونظريته في الحضارة، د. فوزية بريون، دار الفكر، دمشق، ١٤٣١ه، ٢٠١٠م.
٦-مالك بن نبي حياته وفكره، د. عبدالله بن حمد العويسي، ط١، الشبكة العربية للأبحاث، بيروت، لبنان، ٢٠١٢م.
٧-مالك بن نبي دراسة استقرائية مقارنة معالم المنهج في تأصيل العلوم الإنسانية لمشروع ((مشكلات الحضارة)): مولاي الخليفة لمشيشي، ط١، دار محاكاة، دمشق، ١٤٣٣ه، ٢٠١٢م.

وبمراجعة تلك الأعمال عن مالك بن نبي، وجدت أنها لم تتطرق للجانب الذي درسته في بحثي وهو منهج الاستدلال العقدي عنده.

وقد اقتضت طبيعة الدراسة تعدد مناهجها: فقد استخدمت المنهج الوصفي في بيان منهج مالك بن نبي، ثم المنهج التحليلي لأقواله بتحليلها من خلال النسق الفكري الذي تنتمي إليه، ومحللاً لعناصرها وأسسها، مع البحث عن أصولها ومنهجية تأصيلها.

واستخدمت المنهج النقدي الذي لا يكتفي بالتسليم المجرد، وإنما يناقش ويقوِّم، وينقد ويتبنى ويرفض؛ للوصول إلى أرجح الأقوال المدعمة بالأدلة والأوْلى بالقبول.

والمنهج المقارن له دور أساسي مع التحليل والنقد، فقد حاولت من خلاله بيان أوجه التشابه أو الاختلاف بين طريقة مالك بن نبي في الاستدلال، وغيره من المدرسة الفكرية التي ينتمي إليها، مع بيان علاقة التأثير والتأثر في منهجية مالك بن نبي.

والمنهج التركيبي بالتأليف بين العناصر التي تم تحليلها، للكشف عن الأسباب التي أدت إلى وجودها، والعلاقات بينها، والنتائج المترتبة عليها والثابت البنيوي فيها.

وأما خطة البحث وطريقته في التقسيم والتبويب فقد جاءت في: تمهيد و أربعة مباحث كل مبحث يتكون من عدة مطالب، على الوجه التالي:

تمهيد: التعريف بعنوان البحث ومنطلقاته

المبحث الأول: البحث عن دلائل متجددة لإعجاز القرآن الكريم وأثره في منهجية الاستدلال لدى مالك بن نبي.

المطلب الأول: دور الإعجاز البياني في الدفاع عن الرسالة القرآنية والإيمان بها في العالم المعاصر.

المطلب الثاني: حفظ الله للقرآن من التحريف ودلالاته الإعجازية والاستدلالية عند مالك بن نبي.

المطلب الثالث: الاستدلال بمضمون الرسالة القرآنية في الرد على مطاعن المستشرقين.

المطلب الرابع: العلاقة بين القرآن والسنة وحجيتيهما.

المبحث الثاني: الاستدلال على التفرقة بين الوحي والجوانب النفسية والفكرية للنبي ﷺ.

المطلب الأول: الاستدلال على التفرقة بين الوحي والإلهام والمكاشفة.

المطلب الثاني: الاستدلال على التفرقة بين الفكرة الشخصية التي تنبعث من نفسه البشرية والوحي القرآني المنزل عليه.

المطلب الثالث: الاستدلال بنزول القرآن الكريم منجماً على بطلان دعواهم تفسير الظاهرة القرآنية بنظرية اللاشعور النفسي.

المطلب الرابع: الاستدلال بالوحدة الكمية للقرآن الكريم على بطلان دعواهم تفسير الظاهرة القرآنية بنظرية اللاشعور النفسي.

المبحث الثالث: الاستدلال على بطلان دعواهم أن القرآن مزيج من الكتب المقدسة السابقة.

المطلب الأول: الاستدلال على التفرقة بين الثقافة الدينية في الجزيرة العربية و القرآن الكريم.

المطلب الثاني: العلاقة بين القرآن والتوراة والإنجيل.

المطلب الثالث: الوحدانية والأخلاق بين القرآن والتوراة والإنجيل.

المطلب الرابع: الأخرويات بين القرآن والتوراة والإنجيل.

المطلب الخامس: الكونيات بين القرآن والتوراة والإنجيل.

المبحث الرابع: تاريخ الوحدانية بين القرآن والتوراة والإنجيل.

المطلب الأول: العلاقة بين القرآن والقصص التوراتي قصة يوسف عليه السلام نموذجًا

المطلب الثاني: الرد على دعواهم أن النبي ﷺ قد تعلم الكتب المقدسة تعلمًا مباشرًا وشعوريًا كيما يفيضها بعد ذلك في آيات القرآن الكريم.

المطلب الثالث: الرد على دعواهم أن النبي ﷺ قد تعلم الكتب المقدسة تعلمًا مباشرًا وشعوريًا لكي يستخدم ذلك فيما بعد في بناء القرآن.

ثم خاتمة بينت فيها أهم النتائج والتوصيات.

هذا ولست أزعم الكمال في استيفاء جوانب البحث، ولكنها مجرد محاولة لتوجيه الأذهان، وفتح باب المناقشة والاستقصاء في هذا الجانب المهم من جوانب العقيدة، أرجو أن تنضم إليها جهود أفضل منها، فيكون من مجموعها بعد حين الاستقصاء والتأصيل الجيد، وصلى اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تمهيد

التعريف بعنوان البحث ومنطلقاته.

اولًا: التعريف بمالك بن نبي:

هو مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن مصطفى بن نبي، ولد في مدينة قسنطينة –إحدى المدن الجزائرية– في السادس من ذي القعدة من عام ١٣٢٣ه، الموافق للثامن والعشرين من كانون الثاني يناير من سنة ١٩٠٥م، وتوفي بالجزائر يوم الأربعاء ٤ شوال عام ١٣٩٣ه، الموافق ٣١ تشرين الأول ٣١ أكتوبر ١٩٧٣.(١)

و يرتبط التكوين الثقافي لمالك بن نبي بالحياة الدينية والسياسية في الجزائر، ثم بالاهتمامات الثقافية التي انخرط فيها بحكم إقامته في فرنسا في فترة التحاقه بمدرسة الكهرباء والميكانيك(٢)، وخلال حياته الاجتماعية والعلمية اطلع على أعمال المستشرقين، ودورهم في خدمة الاستعمار الغربي لبلاد العالم الإسلامي وخاصة الجزائر، واطلع كذلك على وسائلهم في محاربة الإسلام من خلال كتاباتهم التي تطعن في مصدر القرآن، والطعن في الوحي والنبوة..إلخ.

(١) انظر ترجمته في:–مذكرات شاهد القرن القسم الأول ١٩٦٩م: مالك بن نبي ص ١٥ وما بعدها، ط٢، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.، –في صحبة مالك بن نبي دراسة جامعة لحياته وإنتاجه في مراحلها الثلاث، الجزء الأول الميلاد والنشأة والإنتاج الفكري: عمر كامل مسقاوي، ص ٢٨ ومابعدها، ط١، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤٣٤ه، ٢٠١٣م، والجزء الثاني (هجرة إلى القاهرة ومرحلة الثورة الجزائرية، العائد إلى الجزائر مرحلة الاستقلال، ص ١٢٧٩–مالك بن نبي حياته وفكره: د.عبدالله بن حمد العويسي، ص ٥٢ وما بعدها، ص ١٣٩ وما بعدها، ط١، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ٢٠١٢م.

(٢) انظر: مالك بن نبي حياته وفكره: للعويسي ص ٥١ وما بعده.

ثانيًا: توجهات الخطاب الفكرى لدى مالك بن نبي:

الخطاب هو التعبير عن الفكر والتطوير له بسلسلة كلمات أوعبارات متسلسلة[١] ، ويحدد نوع الخطاب بحسب ما يضاف إليه من محددات تبين نوعه، فإذا كان إسلاميًا فهو بمعنى البيان الذي يوجه باسم الإسلام إلى الناس مسلمين أو غير مسلمين؛ لدعوتهم إلى الإسلام أو تفهيمهم أو تعليمهم..إلخ.

وفي مؤلفاته المتعددة؛ يتحدث مالك بن نبي إلى العالم، وقضيته المحورية خلال أعماله ومؤلفاته الفكرية هي:

١-الدعوة والدفاع عن الإسلام ضد مطاعن المستشرقين، وإثبات موثوقية القرآن الكريم ونبوة نبينا محمد ﷺ، بوصفه مسلمًا يدعو إلى الإيمان برسالة الإسلام. وهو يحدد المقصود بمصطلح المستشرقين بأنه (الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية.) [٢]

٢- البحث عن الحلول للمشكلات الحضارية في المجتمع الإسلامي.

٣- بيان وإثبات فاعلية المنهج القرآني في بناء الأمم والحضارات.

و بصورة أوضح: الدوافع العقائدية والفكرية للتأليف لدي مالك بن نبي، يتوجه بها إلى عالمين متغايرين: أولهما: العالَم الغربي، للرد على موقفهم من الإسلام وسوء فهمهم له، و للدعوة إلى فهم الإسلام وموثوقية مصادره من جهة أخرى. والثاني: العالَم الإسلامي، لتحليل أسباب تقدمه، وقيام حضارته، وأسباب التأخر الحضاري، و مظاهره، وكيفية الإقلاع الحضارى من جديد، في العالم الإسلامي المعاصر، و

(١) موسوعة لالاند الفلسفية: أندريه لالاند، تعريب: د.خليل أحمد خليل، ج١، ص ٢٨٧، ط٢،منشورات عويدات، بيروت، باريس، ٢٠٠١م، ٣مج.

(٢) إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث: مالك بن نبي، ص٤ ، ط١، دار الإرشاد، بيروت، ١٣٨٨ه، ١٩٦٩م.

موثوقية مصادر الإسلام، ودورها في التأسيس للنهضة الحضارية المنشودة.

ففي إطار بحثه عن دلالات جديدة للإعجاز في القرآن الكريم؛ يتوجه مالك بن نبي إلى العالم بكتابه (الظاهرة القرآنية) وهو من الكُتب ذات الخطاب المزدوج للعالمين: الإسلامي، وغير الإسلامي، فهو يهدف من خلاله إلى هدفين مترابطين:

الهدف الأول: بيان خطورة الاعتماد على الفكر الغربي في معالجة أسباب التأخر الحضاري في العالم الإسلامي المعاصر، وهو لا يقصد الجوانب المشتركة في العلوم التقنية، بل المشكلة الخطيرة هي تأثّر الشباب المسلم بالفكر الغربي في جوانب (تمس بطريقة غامضة ما يتصل بالفكر، وما يتصل بالنفس، وفي كلمة واحدة: ما يتصل بالحياة الروحية. وإنه لما يثير العجب أن نرى كثيرًا من الشباب المثقف المسلم يتلقون اليوم عناصر ثقافة تتصل بمعتقداتهم الدينية، وأحياناً بدوافعهم الروحية نفسها، من خلال كتابات المتخصصين الأوربيين.) (١)

وخلال هذه الحقبة الزمنية التي وجه فيها مالك بن نبي خطابه للشباب للمسلم، زادت حدة الإعجاب والتأثر بمناهج المستشرقين، خاصة الشباب الجامعي و الطُلاب المبتعثين للدراسة في الجامعات الغربية، وكانت أعدادهم كثيرة جدًا–في ذلك الوقت– خاصة المصريين، و المغاربة، والشوام، لهذا جاء خطابه لمقاومة، ومعالجة تأثير دراسات المستشرقين على (الفكر الديني لدى شبابنا الجامعي، الشباب الذي يتجه إلى المصادر الغربية حتى فيما يخص معارفه الإسلامية الشخصية، سواء أكان هذا الاتجاه ناشئًا عن افتقار مكتباتنا أم لمجرد التجانس

(١) الظاهرة القرآنية: مالك بن نبي، تقديم: د. محمد عبدالله دراز، الشيخ. محمود شاكر، ص٥٤ ، ط٤، دار الفكر، دمشق،١٩٨٧م، وإعادتها ١٤١٢ه، ١٩٩١م.

والقرابة العقلية.) [1] ولا غبار على هذا التأثر بكتابات المستشرقين لو اقتصر على الموضوع العلمي (ولكن الهوى السياسي الديني كشف عن نفسه أحياناً بكل أسف في تآليف هؤلاء المتخصصين الأوربيين في الدراسات الإسلامية.) [2]

والهدف الثاني: البحث عن جوانب للإعجاز للقرآن الكريم يكون لها تأثير في إقناع العالم الغربي الذي لا يتقن الثقافة العربية ولغتها، وكذلك الشباب المسلم المتأثر بالغرب.

ثالثًا: منهج الاستدلال:

أقصد به طريقة مالك بن نبي في الاستدلال في مجال تفنيده وبيانه للمسائل المرتبطة بالعقيدة الإسلامية، بمعنى إيراده للأدلة في مقام الحِجاج، وفي مقام البيان لأصول المسائل العقدية أو المرتبطة بها، فمن معاني المنهج الاستدلالي أنه (فن التنظيم الصحيح لسلسلة الأفكار العديدة، سواء كان القصد منها كشف حقيقة عندما نكون جاهلين بها؛ أو الاستدلال والبرهنة على حقيقة للآخرين عندما نكون عارفين بها) [3] وعلى هذا فهو (الطريق المؤدي إلى التعرف على الحقيقة في العلوم؛ بواسطة طائفة من القواعد العامة؛ والتي تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته، حتى يصل إلى نتيجة معلومة) [4]وهو الاستدلال بمعناه العام

(١) السابق: ص ٥٥

(٢)السابق: ص ٥٥

(٣) منهج البحث في العلوم الإسلامية: د.محمد الدسوقي، ص ٤٣-٤٤، بيروت، دار الأوزاعي، ١٩٤٨م.

(٤) انظر-:العلم والبحث العلمي دراسة في مناهج العلوم: د.عبدالحميد رشوان، ص ١٤٣وما بعدها، المكتب الجامعي، الإسكندرية، د.ت. -: منهج البحث العلمي عند العرب، د.جلال محمد عبدالحميد موسى، ص٣٧٣، ط١، بيروت، ١٩٧٢م- منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند اهل السنة والجماعة:د.عثمان علي حسن، ج١، ص ٢٠،ط٥، مكتبة الرشد، الرياض ١٤٣٧ه،٢٠٠٦م.

عند الأصوليين حيث يُطلق (بمعنى ذكر الدليل. سواء كان الدليل نصًا أو إجماعًا أو قياسًا أو غيره) [١]

رابعًا: الاستدلال العقدي:

أقصد به الاستدلال-بمعناه السابق-على المسائل المرتبطة بالعقيدة الإسلامية خاصة ما ورد منها في هذا البحث؛ مثل: حفظُ اللِه للقرآن- ومصدر القرآن-إعجاز القرآن-الوحي-النبوة-دلائل النبوة-علاقة القرآن بالكتب السماوية السابقة..إلخ. وهي المسائل التي تناولها مالك بن نبي من جهة الرد على مفتريات وشيهات، ودعاوى، ومزاعم المستشرقين الطاعنين فيها، والمنكرين لها. وهذا من الجوانب التي تتجلى فيها العلاقة المنتجة بين العقيدة والفكر، فقد هضم مالك دعاوى المستشرقين و قام بالرد عليها، وهذا ما قمت بتحليله في هذا البحث.

(١) الإحكام في أصول الأحكام : للآمدي(سيف الدين أبي الحسن على بن أبي على بن محمد) ٤ج ص١٦١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٠ه، ١٩٨٠م.

المبحث الأول

البحث عن دلائل متجددة لإعجاز القرآن الكريم وأثره في منهجية الاستدلال لدى مالك بن نبي.

كانت دعاوى المستشرقين وطعونهم في موثوقية القرآن الكريم، أثرها في توجه مالك بن نبي إلى تفنيد هذه الدعاوى، وبيان جوانب الإعجاز في القرآن. فمن تلك الافتراءات دعواهم بعدم وجود نص موحد للقرآن، من ذلك ما ذهب إليه المستشرق المجري جولدتسهير(١٨٠٥-١٩٢١م) (. ليس هناك نص موحَد للقرآن)،[١] و يضاهي آرثر جفري (١٨٩٢-١٩٥٩م) بين ما حدث للتوراة والإنجيل من تغير وتحريف وبين القرآن الكريم، زاعمًا أنه (نَشَرَ في أيامنا هذه علماء الشرق كثيرًا مما يتعلق بتفسير القرآن وإعجازه وأحكامه، ولكنهم إلى الآن لم يبينوا لنا ما يستفاد منه التطور في قراءاته، ولا ندري على وجه التحقيق لماذا كفوا عن هذا البحث في عصر له نزعة خاصة في التنقيب عن تطور الكتب المقدسة القديمة، وعن ما حصل لها من التغير والتحوير ونجاح بعض الكتاب فيها) [٢]

لهذا اهتم مالك بن نبي بتفنيد مثل تلك الدعاوى، وبيان موقف الإسلام منها، مع الطرح الجديد لكيفية تناولها وتحليلها، والرد عليها، وهذا ما حاولت تحليله ودراسته في المطالب التالية:

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامي: إجنتس جولدتسهر، ص ٥ وما بعدها، ترجمة: د. عبدالحليم النجار، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٤٧ه، ١٩٥٥م.

(٢) آرثر جفري: في مقدمة تحقيقه لـــــــــ (كتاب المصاحف، للحافظ أبي بكر عبدالله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، المتوفى سنة ٣١٦ه) ط١، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٣٥٥ه، ١٩٣٦م.

المطلب الأول

دور الإعجاز البياني في العالم المعاصر في الدفاع عن الرسالة القرآنية والإيمان بها.

يبحث مالك بن نبي عن وسائل الإقناع التي من شأنها تؤسس للإيمان بالقرآن الكريم عند المثقفين المعاصرين، سواء في البلاد الإسلامية أو الغربية، وفي هذا الجانب يذهب إلى أن معرفة أوجه إعجاز القرآن من الناحية البيانية تقتصر على طائفة قليلة من المسلمين بيدها وسائل التذوق العلمي، أي علوم البلاغة والبيان في عصرنا الحالي، ففي عصر التنزيل وما بعده كان تذوق النص القرآني، ومعرفة أوجه إعجازه عند العرب الأوائل وعلماء اللغة العربية، من الناحيتين: الذوق الفطري (السليقة) بالنسبة للعرب وقت التنزيل، والتذوق العلمي (علوم البلاغة) لدي علماء اللغة العربية مثل عبدالقاهر الجرجاني والجاحظ وغيرهما.

ومعنى ذلك أن إدراك الإعجاز البياني مر بمرحلتين:

مرحلة الذوق الفطري: لدى العرب في عصر التنزيل، ويستشهد مالك بقول الأستاذ محمود شاكر (فالشعر العربي كان حين أنزل الله القرآن على نبيه ﷺ نورًا يضيئ ظلمات الجاهلية، ويعكف أهله على بيانه عكوف الوثني للصنم، ويسجدون لآياته سجدة خاشعة لم يسجدوا مثلها قط، فقد كانوا عبدة البيان قبل أن يكونوا عبدة الأوثان، وقد سمعنا من استخف منهم بأوثانهم، ولم نسمع قط من استخف منهم ببيانهم)

في هذه المرحلة كانت (هذه صورة الظروف النفسية التي نزل فيها القرآن، فكان لإعجازه أن ينفذ إلى الأرواح –بصفة عامة في زمن

النزول- على هذا السبيل، أي بما رُكِّبَ في الفطرة العربية من ذوق بياني.)[١]

مرحلة التذوق العلمي: والمقصود بها علوم البيان (البلاغة) حيث تغيرت الظروف بعد عصر التنزيل، و بدأ التأليف في علوم البلاغة والبيان، وكان التركيز في القرون الهجرية الأولى على الإعجاز البياني، فعبارة إعجاز القرآن وضعها علماء البلاغة الأقدمون للدلالة على مضمون التحدي الوارد في عدد من آيات القرآن الكريم، وتتابعت أجيال العلماء بدءًا من الباقلاني (٣٣٨-٤٠٣ه) الذي وضع كتابه بعنوان (إعجاز القرآن) [٢] فصار المصطلح عنوانًا رسميًا على باب عظيم من أبواب الدراسات القرآنية[٣].

وليس إعجاز القرآن منحصرًا في الجانب البياني فقط، بل الاعتقاد بإعجاز القرآن يكتسب من الجلال على مر الأجيال (بقدر ما أضمرت قلوب المؤمنين من تقديس للكتاب الكريم، وبقدر ما أدركت عقولهم من أسرار التنزيل العظيم؛ وكذلك نجد أن لكل جيل إدراكه الخاص في مفهوم إعجاز القرآن بما يتناسب مع التيار العقلي المهيمن على ثقافته) [٤]

وعدم تحديد أوجه الإعجاز في القرآن جعله معجز مطلقًا على مر العصور والأزمان، فكل زمان يكشف من أوجه إعجازه بحسب تطور الحياة الثقافية ومكتشفاتها، فالقرآن الكريم أطلق كلمة التحدي ولم يفسرها كما في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء:

(١) الظاهرة القرآنية: ص ٦١

(٢) راجع: إعجاز القرآن: لأبي بكر محمد الطيب الباقلاني، ص ٣٠ وما بعدها، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م

(٣) حديث عن القرآن: د.عبدالصبور شاهين، ص٦٣، دار أخبار اليوم، القاهرة، ٢٠٠٠م.

(٤) السابق، ص ٣٨

٨٨) و قوله تعالي:﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت:٥٣)

والتحدي الوارد في القرآن الكريم يجعل من الإيمان بالإعجاز القرآني عقيدة دينية وهي بذلك تكون (مثل غيرها من العقائد التي يكون لها برهان عقلي أو حسي حاسم يُقنع الذي يتوخى الحقيقة) (١)

ويذهب مالك بن نبي إلى أنه بعد خفوت أو ضعف التذوق الفطري (مع تطورات التاريخ الإسلامي، وفاض طوفان العلوم في أواخر عصر بني أمية والعهد العباسي، فصار إدراك جانب الإعجاز في القرآن ..عن طريق التذوق العلمي، أكثر من يكون عن طريق الذوق الفطري، وهذا يعني أن الإعجاز كما أدركته العرب وقت النزول، أصبح من اختصاص طائفة قليلة من المسلمين، بيدها وسائل التذوق العلمي) (٢)

وليس معنى ذلك أن مالكًا يقول بفقدان الذوق الفطري والعلمي لدى المسلمين المعاصرين، بل يقصد أنه قلَّ وتأثر بكثير من العوامل التربوية والثقافية التي أثرت على الجانب الأدبي والبياني لدى العرب المعاصرين، لكن يظل التحدي قائم، وله دوره الإعجازي على مر الأزمان والعصور، فعلى الرغم من أن (سيطرتنا القاصرة على عبقرية اللغة الجاهلية، لا تسمح لنا بأن نحكم –عن معرفة– على سمو الأسلوب في القرآن. ومع ذلك فإن هناك آية تستحق انتباهنا، وهي تمدنا في هذه النقطة بمعلومات تاريخية بالغة الأهمية. إذ أن القرآن يؤكد صراحة هذا السمو الذي يقصد به إعجاز العبقرية الأدبية في عصره، فهو يقذف في وجوه معاصريه بهذا التحدي المذهل: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا

(١) فكرة إعجاز القرآن من البعثة النبوية حتى العصر الحاضر، د. نعيم الحمصي، ص ٤٦٢، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠ه، ١٩٨٠م

(٢) الظاهرة القرآنية: مالك بن نبي ص ٦١–٦٢

عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّـهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة:٢٣) ولم يذكر التاريخ أن أحدًا قد أجاب على هذا التحدي، وبهذا يمكن أن نستخلص انه ظل دون تعقيب، وأن إعجازه الأدبي قد أفحم فعلًا عبقرية ذلك العصر) [١]

ولكن مالك لا يتوقف عند فهم التحدي للعرب، أنهم لا يأتون بمثله فقط، بل يذهب إلى أن مظاهر الإعجاز البياني تتجلى في المقارنة بين الأسلوب البياني العربي لدي العرب قبل الإسلام، وأثناء تنزل الوحي، والأسلوب القرآني:

فالخصائص العامة للغة الجاهلية الوثنية المترحلة البرية، تعبر عن النفس البدوية في جوهرها، وجميع مطامحها وانفعالاتها، إنما تتجلى في تعبير موسيقي موزون، هو بيت الشعر، فصورة العبقرية البدوية قد انطبعت في الشعر، ولغته لا تعبر عن أي حيرة روحية أو ميتافيزيقية، وهي تجهل دقائق المنطق، وتجريد الفكر الفلسفي أو العلمي أو الديني. وثروتها اللفظية هي تلك التي تحقق حاجات الحياة البسيطة الخارجية أو الداخلية، لبدوي لا لحضري. [٢]

ولما جاء القرآن طوى هذه الخصائص الجاهلية كيما يعبر عن رسالة عالمية، واختار للتعبير عن ذلك صورة جديدة هي: ((الجملة) فالآية القرآنية ستقصي ناحية شعر البادية، ولكن نسقه سيبقى على كل حال، إذ هي قد تحررت من الوزن فحسب فاتسع مجالها، وهناك شهادات سجلتها لنا السيرة في ذلك العصر، تقدم لنا معلومات واسعة عن التأثير الغلاب الذي كان لآيات القرآن على النفس البدوية) [٣]

(١) السابق: ص ١٨٩
(٢) السابق: ص ١٩٠
(٣) الظاهرة القرآنية: ص ١٩٠

ومن الأمثلة التي يستدل بها مالك على تأثير القرآن على النفس البدوية، تحول عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الإسلام بفعل هذا التأثير، وكذلك تعبير الوليد بن المغيرة الذي كان مثالًا في الفصاحة والفخر الأدبي –عن رأيه في سحر القرآن بقول: (والله لقد سمعت كلامًا لا هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق؛ وإنه يعلو ولا يُعلى عليه) (١)

وعلى هذا فإن الجديد في لغة القرآن أنه: (في كل شيء يتناوله من شؤون القول يتخير له أشرف المواد وأمسها رحمًا بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به، بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة، وصورته الكاملة..) (٢) ومعنى ذلك أن القرآن ليس منحصر في لغة العرب وتراكيبهم التي تواضعوا عليها، فالزعم بذلك مخالف لحقيقة دور القرآن الكريم في تحديث اللغة العربية؛ فإن (القرآن حين وسع دائرة الدلالة اللفظية– قد منح ألفظ اللغة مرونة هائلة، وصلاحية باهرة للتعبير عن مختلف المعاني الطاؤئة في حياة الناس، لقد فك الألفاظ من إسارها، وأطلقها من عقالها..) (٣)

استنتاجات:

من خلال المقارنة العامة من حيث الخصائص اللغوية بين لغة العرب في شعرهم، ولغة القرآن الكريم، يمكن استخلاص نتيجة المقارنة في المحاور الآتية:

---

(١) السابق: ص ١٩٢

(٢) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن: د.محمد عبدالله دراز، ص ١١٩، تقديم: د.عبدالعظيم المطعني،تحقيق: أحمد مصطفى فضلية، ط٩، دار القلم، القاهرة، ١٤٢٦ه، ٢٠٠٥م.

(٣) العربية لغة العلوم والتقنية: د.عبدالصبور شاهين، ص ٦١، ٦٢، ط٢، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٦م.

١-إن القرآن ظاهرة لغوية فريدة في تاريخ اللغات، إذ لم يحدث للغة العربية تطور تدريجي، بل بعض ما يشبه الانفجار الثوري المباغت، كما كانت الظاهرة القرآنية مباغتة، وبهذا تكون اللغة العربية قد مرت طفرة من المرحلة اللهجية الجاهلية، إلى لغة منظمة فنيًا، لكي تنقل فكرة الثقافة الجديدة والحضارة الوليدة.

٢-هذه الظاهرة قد خلقت من الوجهتين الأدبية واللغوية فصلًا تامًا بين اللغة الجاهلية، واللغة الإسلامية.

٣-القرآن الكريم تجاوز الحدود التلقيدية للأدب الجاهلي، وأحدث انقلابًا هائلًا في الأدب العربي بتغييره الأداة الفنية في التعبير، فهو من ناحية جعل الجملة المنظمة في موضع البيت الموزون، وجاء من ناحية أخرى بفكرة جديدة، أدخل بها مفاهيم وموضوعات جديدة، لكي يصل العقلية الجاهلية بتيار التوحيد.[١]

ويؤكد مالك بن نبي- على أن نتائج المقارنة بين خصائص لغة الجاهلية ولغة القرآن، لا يقلل منها ما ادعاه المستشرق مرجليوث من قول بانتحال الشعر الجاهلي، فمالك يرفض هذا القول مبيِّنًا أن (الجدال حول هذه المسألة قد صُفي وأغلق في مصر بما قام به الرافعي ومدرسته من دراسات، فلم يعد (لفرض) العالم الإنجليزي مجال إلا بعض الدراسات المغرضة، وفضلًا عن ذلك فليس من الممكن أن نتصور: كيف، ولماذا اخترع بعض الناس نوعًا أدبيًا رصينًا كالشعر الجاهلي، ثم اختلقوا له أسماء شعرائه ومؤلفيه؟ إن هذا غير مفهوم.)[٢]

ولكن هل يقتصر إعجاز القرآن الكريم على الجانب البياني؟ لا تقصر جوانب الإعجاز على الجانب البياني فقط، وليس معنى ذلك أنه يقلل من دوره الإقناعي، وإنما يقصد أن إدراك إعجاز القرآن عن هذا

(١) الظاهرة القرآنية: ص ١٩١-١٩٢

(٢) السابق: ص ١٩١-١٩٢

الطريق، بالنسبة لكثير من المسلمين المعاصرين، و للعالم الغربي بوصفه مخاطب بالقرآن الكريم والدعوة إلى الدخول في الإسلام، إدراكهم للإعجاز القرآني من الصعوبة أن يتأتي عن طريق الإعجاز البياني، ومن ثم فهو يبحث عن وسائل أخرى تكمن فيها جوانب للإعجاز في القرآن الكريم، فهو يصرح بعجزه عن إدراك الإعجاز من هذا الوجه أي بوسائل التذوق العلمي، و إدراكه عن طريق التذوق الفطري. (١) لهذا فهو يعبر من مواجهته لتلك المشكلة للخروج من الحيرة وفقدان الوسيلة في في أمس القضايا، لمواجهة مشكلة (الإعجاز في صورتها الجديدة.. بالنسبة لأغلبية المسلمين المثقفين ثقافة أجنبية، بل ربما لذوي الثقافة التقليدية في ظروفهم الثقافية والنفسية الخاصة، فلابد إذن من إعادة النظر في القضية في نطاق الظروف الجديدة التي يمر بها المسلم اليوم، مع الضرورات التي يواجهها في مجال العقيدة والروح) (٢)

فإذا كان إعجاز القرآن لدى العرب وقت التنزيل مرتبط بالبلاغة والبيان، فليس معنى ذلك فقدان دلائل الإعجاز على مر العصور والأزمان، من ثم كانت صفة الإعجاز للقرآن صفة ملازمة له (عبر العصور والأجيال وهي صفة يدركها العربي بذوقه الفطري كعمر رضي الله تعالى عنه أو الوليد، أو يدركها بالتذوق العلمي كما فعل الجاحظ في منهجه الذي رسمه لمن جاء بعده، ولكن المسلم اليوم قد فقد فطرة العربي الجاهلي، وإمكانيات عالم اللغة في العصر العباسي) (٣)

وموضوع الإعجاز ليس من الموضوعات التابعة للقرآن، أو المتفرعة عنه، فعلى الرغم من فقدان فطرة العربي وقت التنزيل،

(١) السابق: ص ٦٢
(٢) السابق: ص ٦٣
(٣) الظاهرة القرآنية: ص ٦٧

وعدم امتلاك أدوات عالم اللغة في العصور التالية له، فإن القرآن (لم يفقد بذلك جانب الإعجاز لأنه ليس من توابعه بل من جوهره، وإنما أصبح المسلم مضطرًا إلى تناوله في صورة أخرى وبوسائل أخرى) [١]

إذن مقصد مالك من قوله أن الإعجاز ليس من الموضوعات التابعة للقرآن أو المتفرعة عنه، معناه أنها من جوهره الذي لا يفارقه، وأنه متجدد عبر الأزمان، وله صوره ووسائله التي يجب على علماء الإسلام استنباطها وبيانها عبر الأزمان.

وبناء على ما سبق، ما هي الصورة والوسائل التي وجد فيها مالك بن نبي دلائل جديدة لإعجاز القرآن الكريم ؟؟ يذهب مالك إلى أن منهجه في هذا الجانب (يتناول الآية من جهة تركيبها النفسي الموضوعي، أكثر مما يتناولها من ناحية العبارة، فيطبق في دراسة مضمونها طُرُقًا للتحليل الباطن..)[٢]ويذهب إلى أن ذلك المنهج له (ضرورة ملحة بالنسبة للمسلم الذي حاول تعقيد عقيدته على أساس إدراك شخصي لقيمة القرآن بوصفه كتابًا منزلًا، فإنها أكثر إلحاحًا بالنسبة لغير المسلم الذي يتناول القرآن بوصفه موضوع دراسة أو مطالعة) [٣]

وفي الصفحات القادمة مزيد بيان لمقصد مالك بالتحليل الباطن للآيات؛ لاستخراج الجوانب المتجددة في الإعجاز القرآني.

(١) السابق: ص ٦٧
(٢) السابق: ص ٦٧
(٣) السابق: ص ٦٧

المطلب الثاني

حفظ الله للقرآن من التحريف ودلالاته الإعجازية والاستدلالية عند مالك بن نبي.

من الدعاوى الاستشراقية ما ذهب إليه المستشرق جولدتسهير (إن الميل إلى توحيد النص الأصلي غريب على الإسلام في بادئ الأمر، أو هو على الأقل أمر غير ذي بال. ليس هناك نص موحَد للقرآن، ومن هنا نستطيع أن نلمح في صياغته المختلفة أولى مراحلة التفسير..) (١)

وفي دحضه لهذه الشبه يذهب مالك بن نبي إلى أنه (في دراسة نقدية للإسلام، لا نستطيع أن نغفل أهمية فحص الوثائق المدونة، أو التاريخية التي يمكن أن تلقي ضوءًا على الظاهرة القرآنية. على أن هذه المشكلة التاريخية قد حُلت بالنسبة للإسلام بصفة استثنائية: فهو الوحيد من بين جميع الأديان الذي ثبتت مصادره منذ البداية، وعلى الأقل فيما يختص بالقرآن.) (٢)

وعن انتقال القرآن عبر الأجيال يبين مالك ذلك من خلال امتياز (القرآن الكريم بميزة فريدة هي أنه تنقل منذ أربعة عشر قرنًا، دون أن يتعرض لأدنى تحريف أو ريب، وليست هذه هي حال العهد القديم (التوراة)، الذي لم تعترف له بالصحة الدراسة النقدية للشراح المحدثين، فيما عدا واحدًا من كتبه هو كتاب (أرمياء). وليس العهد الجديد بأسعد حالًا، فقد ألغى مجمع أثاقفة (نيقية) كثيرًا من أخباره، مما زرع الشك حول ما تبقى منه وهو (الإنجيل). وهذا الأخير بدوره لا يُعد من الصحاح: لان النقد أثبت أنه قد وضع بعد المسيح بأكثر من قرن، أي بعد عصر الحواريين الذين تنسب إليهم التعاليم المسيحية. وعلى هذا فإن

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامي: إجنتس جولدتسهر، ص ٥ وما بعدها، ترجمة: د. عبدالحليم النجار، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٤٧ه، ١٩٥٥م.

(٢) الظاهرة القرآنية: ص ١٠٣.

شكوكًا كثيرة تحوم حول القضية التاريخية للوثائق اليهودية والمسيحية.) [١]

بناء على النص السابق يرى مالك بن نبي أن التحريف أصاب التوراة والإنجيل وهما (الكتاب المقدس) الحالي لليهود والنصارى على اختلاف بينهم في عدد الأسفار[٢]، أما سفر أرميا فهو يعتقد بصحته، وأورد على ذلك كثير من الأدلة التي يرى من خلالها صحته.

وفي رده على تشكيكهم في وحدة القرآن الكريم يبين أن (هذا التحديد الكامل للنص القرآني على عهد النبي نفسه، يُعَدُ ظاهرة جديرة بالملاحظة من وجهة علم الاجتماع وعلم النفس بخصوص الوسط العربي في العصر المحمدي. فتلك نقطة جوهرية تستحق البحث والوقوف أمامها، إذ ليست هنا مشكلة تدوين بالنسبة للقرآن، كما هو الأمر بالنسبة للكتاب المقدس؛ وهي أيضًا مؤيدة بحقائق التاريخ التي ينبغي أن نلفت إليها انتباه القارئ ليلاحظ هو أيضًا توافق واقع التاريخ مع هذه الآية القرآنية ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحِجر:٩) ومع ذلك فإن لهذا الحفظ تاريخه: فكلما كان الوحي يتنزل كانت آيات القرآن تثبت في ذاكرة الرسول ﷺ وصحابته، وتُسَجَّلُ فورًا بأيدي أمناء الوحي، فقد كانوا يستخدمون من أجل ذلك كل ما يصلح للكتابة كعظام الكتف أو قِطع الجِلد...إلخ.. حتى إذا قُبِض رسول الله ﷺ كان القرآن محفوظًا في الصدور، مدونًا في الصحف، فكان من الممكن كلما دعت الحاجة موازنة الآيات بعضها ببعض، ولاسيما حين يعرض اختلاف من نوع صوتي أو لَهَجي.) [٣]

---

(١) الظاهرة القرآنية: ص ١٠٣.

(٢) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية: د.سعود الخلف، ص ٧٣ وما بعدها، ص ١٩٣ وما بعدها، ط٥، دار أضواء السلف، الرياض،١٤٢٧ه، ٢٠٠٦م.

(٣) الظاهرة القرآنية: ص ١٠٤.

وعن مرحلة جمع القرآن ومنهجيتها في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه يبين أنه:(وفضلًا عن ذلك فسنجد أن هذه الموازنة تحدث مرتين، والطريقة التي نفذت بها هي في ذاتها حدث فذ في تاريخ الصناعة العقلية الإنسانية، فللمرة الأولى تتجلى صفات الطريقة المنهجية في عمل عقلي، كما تتجلى الدقة التي هي الآن وقف على التفكير العلمي.) [١]

وتتجلى المنهجية العلمية في جهود أبي بكر الصديق رضي الله عندما اختار (لجنة يرأسها زيد بن ثابت، الذي كان أمينًا للوحي على عهد الرسول ﷺ، كتبت القرآن منظمًا لأول مرة[٢]. ويبدو أن زيدًا أحجم عن القيام بهذه المهمة لأمرين:

أولهما: أنه لا يريد بوصفه صحابيًا أن يقوم بمحاولة لم يقم بها النبي ﷺ، أو يأمر بها.

وثانيهما: أنه بوصفه مؤمنًا يتحاشى مثل هذا العمل، لأنه يخشى مقدمًا أبسط الأخطاء المتوقعة في تنفيذ مهمته، وعلى الرغم من هذا فقد تمت هذه المهمة بفضل الجهود المتعاونة الواعية لأعضاء اللجنة. وكانت الطريقة التي اتُبِعت بسيطة ولكنها مدققة، لأنهم كانوا يحفظون القرآن عن ظهر قلب، بالنظام نفسه الذي تعلموه في صحبتهم بإرشاد الرسول لهم، فإن حدث اختلاف رجعوا إلى القِطع التي كُتِبت فيها الآيات عند نزولها؛ حتى يرفعوا الشك عن موضوعها، ولم يكتفوا بكل هذه الاحتياطات الملحوظة فإن زيدًا وعمر رضي الله عنهما قد ذهبا إلى

(١) الظاهرة القرآنية: ١٠٤.

(٢) المقصود أن الكتابة المنظمة للقرآن لم تحدث إلا على عهد أبي بكر رضي الله عنه، أما ترتيب الآيات والسور فقد كان توقيفيًا من جبريل للنبي ﷺ حين كان يعارضه بالقرآن، وخاصة بعد حجة الوداع

باب مسجد المدينة، وهنالك أشهدا بقية الصحابة لتوثيق الرواية المكتوبة بواسطة اللجنة نفسها.) [١]

واستمرت الجهود في خدمة القرآن الكريم في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه:(وأمر أن تكتب رواية موحدة فريدة بلغة قريش، فاختيرت لجنة ثانية على رأسها زيد أيضًا، و كُلِّفت أداء هذه المهمة الجديدة، وكان عليها هذه المرة أن تثبت النص القرآني نهائيًا في لغة واحدة، حتى لا يتسبب تنوع اللهجات في إحداث الشِقاق والتدابر في المجتمع الإسلامي، وأنهت اللجنة عملها عام ٢٥ه. ومنذ ذلك العصر والقرآن ينتقل من جيل إلى جيل بصورة وحيدة فريدة متعارف عليها من مراكش إلى حدود منشوريا.) [٢]

استنتاج: بناء على الدليل القرآني المعجز وهو وعد الله بحفظ القرآن الكريم، وما قام به صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما أصاب التوراة والإنجيل من تحريفات؛ يمكن استنتاج الحقيقة اليقينية وهي أن القرآن الكريم (الكتاب الديني الوحيد الذي يتمتع بامتياز الصحة التي لا جدال فيها، لأنه لم يُثِر النقد أية مشكلة حوله، سواء أكان ذلك شكلًا أم موضوعًا.) [٣]

المطلب الثالث

الاستدلال بمضمون الرسالة القرآنية في الرد على مطاعن المستشرقين.

يستدل مالك بن نبي بمضمون الرسالة القرآنية على حجيته من جهة التشريعات من جهة-كما سبق بيانه في المطلب السابق-، وعلى الدور الإقناعي لذلك المضمون من جهة أخرى، فمن حيث المضمون يذهب إلى أن (رحابة الموضوعات القرآنية وتنوعها لشيء فريد، طبقًا

(١) الظاهرة القرآنية: ص ١٠٥.
(٢) السابق: ص ١٠٥
(٣) السابق: ص١٠٦.

لتعبير القرآن نفسه ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨) فهو يبدأ حديثه من ذرة الوجود المستودعة من باطن الصخر، والمستقرة في أعماق البحار، إلى النجم الذي يسبح في فلكه نحو مستقره المعلوم، وهو يتقصى أبعد الجوانب المظلمة في القلب الإنساني، فيتغلغل في نفس المؤمن والكافر بنظرة تلمس أدق الانفعالات في هذه النفس. وهو يتجه نحو ماضي الإنسانية البعيد، ونحو مستقبلها، كيما يعلمها واجبات الحياة، وهو يرسم لوحة أخاذة لمشهد الحضارات المتتابعة، ثم يدعونا إلى أن نتأمله لنفيد من عواقبه عظة واعتبارًا.) [١]

ولكن ما وجه الاستدلال لمالك بن نبي من خلال عرضه الرائع للمضمون العام للرسالة القرآنية في النص السابق؟ يستنتج مالك من خلال مضمون الرسالة القرآنية على نفي التأثر بالبيئة الخاصة التي نزل فيها الوحي وعدم الخضوع للقانون القائل (إن عبقرية الإنسان تحمل بالضرورة طابع الأرض، ليخضع كل شيء لقانون الزمان والمكان، بينما يتخطى القرآن دائمًا نطاق هذا القانون، وما كان لكتاب بهذا السمو أن يُتَصَوَّر في حدود الأبعاد الضيقة للعبقرية الإنسانية؛ ومن المقطوع به أنه لو أتيح لأحد الناس أن يقرأ قراءة واعية يدرك خلالها رحابة موضوعه، فلن يمكنه أن يتصور الذات المحمدية إلا مجرد واسطة لعلم غيبي مطلق.) [٢]

وعلى ذلك فإن مالك يقصد نفي تاريخية القرآن الكريم أي ارتباطه بزمان ومكان تنزله فقط بل هو لكل زمان ومكان وإنسان، وينفي– كذلك– القول بمصدريته البشرية النابعة من عبقرية النبي ﷺ، لأنه مبلغ عن ربه ما يوحي إليه.

---

(١) السابق: ص ١٩٥

(٢) الظاهرة القرآنية: ص ١٩٦

ولكن الاقتصار على مجرد الاستدلال بالمضمون ربما لا يكفي في دعوة غير المسلمين، وفي الرد على الطاعنين القائلين (بعبقرية محمد ﷺ) لذلك ينتقل مالك باستدلاله إلى بيان أن الذات المحمدية (تشغل في القرآن مكاناً ضئيلًا، إذ نادرًا ما يتحدث القرآن عن تاريخ محمد الإنسان: إن آلامه العظمى أو مسراته لم ترد فيه قط؛ ولو تخيلنا النازلة التي أصابته في أوج دعوته بفقد عمه وزوجه لأدركنا مدى الدوي الرهيب لحدث كهذا، في حياة رجل كان حتى آخر لحظاته يبكي خديجة وأبا طالب..وعلى الرغم من هذا لا نجد أي صدى لموتهما في القرآن.) [١]

وما أشار إليه مالك في النص السابق جدير بالعناية من جهة أن القرآن لم يتطرق لحياة النبي ﷺ إلا لبيان الأحكام الشرعية وتطبيقاتها، مثل ما جاء من بيان لبراءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في سورة التوبة، و مسألة زواجه أم المؤمنين زينب بنت جحش، وما جاء من حديث عن أزواج النبي في سورة الطلاق.

استنتاج عام:

من خلال ما سبق من بيان عام لمضمون الرسالة القرآنية، وخلوها من الحديث بعض الأحداث المهمة التي أشار إليها مالك يستنتج من خلالها أن (في هذه النقطة ضرورية في رأينا لأية دراسة نفسية تحليلية لموضوع القرآن الذي شغل منذ بعيد اهتمام المستشرقين لغايات مختلفة، وبدوافع جِد متخالفة. وقد قدمت هذه الموضوعات الخاصة بالقرآن مادة غزيرة لدراسات هؤلاء العلماء، وربما كان من الواجب أن ندرسها هنا لنلفت إليها انتباه القارئ.) [٢]

(١) السابق: ص ١٩٦

(٢) السابق: ص ١٩٦

من خلال ذلك يتبين هدف مالك من تحليله للظاهرة القرآنية وهو الرد على الدعاوى الاستشراقية، في قولهم بالعبقرية المنتجة للنص كما سبق بيانه.

المطلب الرابع

العلاقة بين القرآن والسنة، و حُجيّتهما .

ربما يتصور القارئ أن هذا المطلب ليس في موضعه، لكن لما كان هذا المبحث يتحدث عن منهجية الاستدلال بالقرآن السنة؛ فقد جئت بذلك المطلب لارتباطه بدعاوى المستشرقين، ومنهم جولد تسيهر الذي زعم أن الحديث النبوي في مجموعه من صنع القرون الثلاثة الأولى للهجرة، وليس من قول الرسول ﷺ، وأن أحكام الشريعة لم تكن معروفة لجمهور المسلمين في الصدر الأول من الإسلام. (١)

وكذلك لبيان أن مالك لا يتجاهل السنة كمصدر للاستدلال من جهة، و لبيان مدى اهتمامه بها، ونفي الظن أنه يقتصر على القرآن فقط في الاستدلال على ما يبينه من تحليلات، وما يستدل عليه من موضوعات، فالسنة هي: (المصدر الثاني المدون عن الإسلام ينحصر في أحاديث الرسول ﷺ، ومن المؤسف أنه لم يتوافر لهذا المصدر ما توافر للأول من الصحة التاريخية، فإن الأحاديث لم تُحفظ بالعناية المنهجية نفسها التي ظفر بها القرآن، فقد منع الرسول ﷺ في حياته الصحابة بقوة وصراحة من أن يكتبوا أقواله، حتى لا يحدث أدنى خلط ممكن بين ما ينطق به، والآيات المنزَّلة أي بين السُّنة والقُرآن. ولم تظهر أهمية الحديث إلا بعد وفاة النبي صلى الله عليه و سلم، وخاصة من الناحية الشرعية، بوصفها مصدرًا ثانيًا للتشريع الإسلامي) (٢).

---

(١) الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: د. مصطفى السباعي ص ٥٥

(٢) الظاهرة القرآنية: مالك بن نبي، ص١٠٦.

ويستدل مالك بن نبي على دور السنة التشريعي من خلال:

١- توجيهات الرسول ﷺ للمبعوثين من الصحابة لتعليم الناس، ففي تاريخ التشريع الإسلامي عند سفر مُعَاذ بن جبل، الصحابي الذي اختاره الرسول ﷺ ليقضي بالإسلام بين أهل اليمن، بعد غزوة حنين، وعندما أراد الرسول ﷺ أن يوصيه سأله، كيف تقضي فيما يُعْرَضُ لك، فقال معاذ: أقضي بكتاب الله، فإن لم أجد فيه، أخذت بسنة رسول الله، فإن لم أجد فيها أجتهد رأيي ولا آلو). [١]ولقد أيد الرسول ﷺ طريقة معاذ في النظر، تلك التي تَعْرِضُ ضمناً المصدر الثاني للتشريع، وتعرض أيضًا القياس مصدره الثالث. [٢]

وزادت أهمية الحاجة إلى تدوين السنة النبوية مع (تكاثر الحاجات في المجتمع الإسلامي نما هذا التشريع، فاتجه الفقهاء إلى أن يثبتوا- ما وسعهم الجهد – الأحاديث التي يجب أن تصبح عنصرًا جوهريًا في الفقه القانوني، ومع ذلك فإن المسافة بين وفاة الرسول وعصر تدوين الحديث كانت ذات أهمية، إذ حدث خلالها خلط كثير، وشكوك مضاعفة بين الأحاديث الصحيحة وغيرها.) [٣]

ونشأ علم الحديث بسبب ذلك فمنذ (ذلك الحين وضِعت طريقة نقدية صالحة لتمييز ما هو صحيح عما ليس كذلك، فطُبِّقت طريقة النقد التاريخي التي تشمل تحقيق اتصال الرواية، وقيمة الرجال الذين وصل عن طريقهم الحديث. وقد أدى هذا الوضع بالمحدثين إلى أن يصنفوا

(١) رواه أبو داود في سُنَنه، كتاب الأُقضية (٢٣) الباب الحادي عشر، اجتهاد الرأي في القضاء، حديث رقم، ٣٥٩٢.

(٢) انظر: الظاهرة القرآنية: ص١٠٦.

(٣) السابق: مالك بن نبي، ص١٠٧.

الحديث ثلاث مجموعات تبعًا لدرجة التثبت التاريخي: الصحيح، والضعيف، والمكذوب) [١]

بناء على ما سبق يبين مالك مصادر الاستدلال الرئيسة و هي (مصادر الإسلام المدونة في حالتها الراهنة: الآيات القرآنية الصالحة لأن تستخدم وثيقة تاريخية مُطْلَقة الصحة، والحديث الذي يختلف في درجة الصحة، والذي لا يصح أن يُستخدم– على كل حال– في أي دراسة نقدية إلا مع الاحتياطات المستخلصة من الطُرُق نفسها التي اتبعها المحدِّثون المنزهون عن الكذب أو الغش أو التدليس، كالبخاري ومُسلم) [٢]

وفي تأكيده اليقيني على حجيتهما في الاعتقاد والاستدلال يبين أنه (بهذه الاحتياطات يصبح المصدران اللذان يستخدمهما الباحثون في الإسلام، صحيحين على سواء، وسيكون من النفج والادعاء أن نرفض منذ البداية باسم المنهج ما تقدمه لنا السنة من أسانيد) [٣] والاحتياطات التي يقصدها مالك هي الخاصة بشروط صحة الحديث عند الإمامين البخاري ومسلم، أما القرآن الكريم فهو الكتاب اليقيني المطلق الصحة في الاعتقاد والبرهنة والاستدلال.

(١) الظاهرة القرآنية: ص١٠٧.
(٢) السابق: ص١٠٧.
(٣) السابق: ص١٠٧.

المبحث الثاني

الاستدلال على التفرقة بين الوحي والجوانب النفسية والفكرية للنبي ﷺ

يدعي المستشرق الألماني تيودور نولدكه أن النبي ﷺ (لم يكن في وسعه أن يفصل بين الروحانيات والدنيويات، فغالبًا ما استخدم سلطة القرآن، ليفرض أمورًا لا علاقة لها بالدين) (١)

المطلب الأول

الاستدلال على التفرقة بين الوحي الإلهي والإلهام والمكاشفة.

في إطار الدعوة إلى الإسلام، والدفاع عنه ضد ناقديه ومحاربيه في الغرب وخاصة فرنسا التي عاش فيها مالك بن نبي جانبًا كبيرًا من حياته – في هذا الإطار– يدرس مالك ظاهرة الوحي، فهي في نظره (عنصر رئيسي في نظر الناقد الذي يريد أن يدرس الظاهرة القرآنية بالنسبة للذات الواعية عند محمد ﷺ)(٢)

أولًا: التفرقة بين الوحي، والإلهام، والمكاشفة.

وفي هذا الجانب ينتقد مالك بن نبي ما قدمه العلماء من تفسير للوحي على أنه: مكاشفة– أو وحي نفسي– أو إلهام.

فالبنسبة لتفسيره على أنه إلهام؛ يرفض مالك هذا التفسير، لأن هذه الكلمة (ليس لها مدلول نفسي محدد، مع أنها مستخدمة عمومًا كي ترد معنى الوحي إلى ميدان علم النفس.) (٣)

أما تفسير الوحي على أنه مكاشفة: فإن مدلولها لا يتفق مع الأحوال الظاهرة لدى النبي ﷺ، في حالة التلقي التي يعانيها أثناء

---

(١) تاريخ القرآن: تيودور نودلكه، ترجمه عن الطبعة الألمانية الثانية التي عدلها فرديش شفالي:د.جورج تامر، بالتعاون مع فريق عمل مكون من:عبلة معلوف، و د. خير الدين عبدالهادي، د.نقولا أبو مراد، ص ٦، ط١، بيروت، ٢٠٠٤م.

(٢) الظاهرة القرآنية: ص ١٤٤

(٣) السابق: ص ١٤٤

نزول الوحي. ومن ناحية أخرى، تعرف المكاشفة أو الوحي النفسي من الوجهة النفسية بأنها (معرفة مباشرة لموضوع قابل للتفكير، أو خاض فيه التفكير فعلًا) بينما يجب أن يأخذ الوحي معنى: (المعرفة التلقائية والمطلقة لموضوع لا يشغل التفكير، وأيضًا غير قابل للتفكير) لكي يكون متفقًا مع اعتقاد النبي، ومع التعاليم القرآنية(١).

ومن الوجهة العقلية لا تنتج المكاشفة عند صاحبها يقينًا كاملًا، بل إنها تخلق نصف يقين، أو بعض ما يؤدي إلى ما يسمى احتمالًا، والاحتمال معرفة يأتي برهانها بعدها، وهذه الدرجة من الشك هي التي تميز المكاشفة من الوحي من الناحية النفسية، أما يقين النبي ﷺ فقد كان كاملًا، مع وثوقه بأن المعرفة الموحى بها غير شخصية وطارئة وخارجة عن ذاته، وهذه الصفات تتأكد في نظر الذي يتلقى الوحي تأكدًا لا يبقى معه ظل من الشك فيما يتصل بموضوعية الظاهرة الموحية، وهذا شرط أول مطلق ضروري لاعتقاد النبي الشخص(٢).

وبناء على ما سبق فإن مالكًا يستبعد أن النبوة لا تقوم على المكاشفة، ويتساءل، هل كان لرسول الله ﷺ، أن يعرف بالمكاشفة حالة أم موسى حين ألقت ولدها في اليم؟ وهل بالمكاشفة كان النبي يميز فيما ينطق به نوعين من الإيحاء هما:

الآية القرآنية التي يأمر بتسجيلها فورًا، والحديث الذي يستودع ذاكرة صحابته فحسب، ومعلوم أن القرآن من حيث المقاطع الصوتية جزء مما نطق به النبي؟

إن تمييزًا كهذا يكون ليس له معنى لو لم يكن لدى صاحبه في الوقت ذاته علم تام بالفرق بين القرآن والحديث. ومع ذلك فهذا التمييز

(١) السابق: ص ١٤٣-١٤٤

(٢) انظر: السابق، ص ١٩٦

أساسي، ذُكِّرَ به النبي ﷺ في القرآن في آيات كثيرة ورد فيها ذكر الوحي، سواء في صورة الاشتقاق المصدري (وحيًا)، أو في صورة فعلية أوحى وأوحينا...إلخ. (١)

من خلال هذه الاستدلالات يخلص مالك بن نبي إلى أن المكاشفة لا تصلح دليلًا على تفسير ظاهرة النبوة والوحي؛ سواء من الناحية النفسية، أم العقلية، أم الواقعية وهي التفرقة بين الوحي والحديث.

استخلاص مفهوم الوحي من خلال القرآن الكريم:

بعد نقده للتفاسير أو المعاني التي ترتبط بالوحي النبوي وهي (الإلهام والمكاشفة) يحاول مالك بن نبي استخلاص المفهوم القرآني لهذه الكلمة، ويذهب إلى أن:كلمة الوحي في القرآن لها جانبين: أولهما: تسوق معنى الوحي لغايات جدلية، وهي مشاهد غيبية تتيح استخدامها برهانًا في محاجته خصوم دعوته، ومن ذلك –استدلاله– بقوله تعالى﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (سورة ص: ٦٧–٧٠)

أما الجانب الثاني: يسوق القرآن معنى الكلمة لحاجات النبي الشخصية، ومن اجل تربيته الخاصة، ومن ذلك مثلًا ما يتجلى في الآية التالية: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾(آل عمران:٤٤)

فهذه الآية تعطي الوحي معنى كشف المغيَّب؛ مغيب محدد تمامًا، يضم التفاصيل المادية لمشهد روحي خالص، ويضم أيضًا واقعًا معينًا هو (إلقاء الأقلام) ولقد وَضَع هذا المغيب المكشوف تحت نظر النبي ما

(١) انظر: الظاهرة القرآنية، ص ١٩٦

يشبه المقياس الذي يتيح له أن يفصل ما هو شخصي بالنسبة له، كأفكاره ومكاشفاته العادية عمّا لا يتصل بشخصه، فهو صادر عن الوحي[١].

يُلاحظ من خلال ما سبق؛ أن مالكًا يحاول تجلية مفهوم الوحي من خلال القرآن الكريم بما يزيل أي لبس بينه وبين المكاشفة من جهة، وبما يبين دور الوحي في البرهنة على النبوة من خلال ما فيه من مشاهد غيبية، ومن خلال تثبيته ليقين النبي ﷺ، وهو ما عبَّر عنه مالك بـــ (حاجات النبي الشخصية). ولا شك أن جوانب الوحي لا تقتصر على هذين الجانبين (البرهنة، والتثبيت) بل فيها الشمول والكمال لتوجيه كل جوانب الحياة الإنسانية، وهذا ما يعيه مالك بن نبي، ولكنه هنا يقصد بيان مفهوم الوحي ومفارقته لمفهوم المكاشفة.

ولهذا فهو ينتقد تعريف الشيخ (محمد عبده) للوحي، في (رسالة التوحيد) حيث قال (وقد عرَّفوه: شرعًا بإنه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه. أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص في نفسه، مع اليقين بأنه من قِبل الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت، ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تسيقنه النفس، وتناسق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى. وأشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور) [٢]

جوانب نقد مالك بن نبي لتعريف الوحي عند الشيخ محمد عبده:

١–التناقض بين القول بأن النبي لا يدري كيف جاءت المعرفة، وقوله مع اليقين بأنها من عند الله، مما يؤدي إلى القول بالمكاشفة:

ينتقد مالك بن نبي التعريف السابق، مبينًا أن الشيخ أسهب في تعريفه للوحي، ويكتنفه بعض الغموض فيما يتصل بتفسير اليقين عند

(١) انظر: السابق، ١٤٥

(٢) الوحي المحمدي: للشيخ محمد رشيد رضا، ص ٢٨، القاهرة، ١٩٣٥م.

النبي، وهذا لأننا (في الحالة التي لا يكون الوحي فيها منتقلًا بطريقة محسة –مسموعة أو مرئية– سنقع في تعريف الوحي تعريفًا ذاتياً محضًا، إذ أن النبي في التحليل الأخير لا يدري بصفة موضوعية كيف جاءته المعرفة، وهو يجدها في نفسه مع تيقنه أنها من عند الله، إن في ذلك تناقضًا واضحًا يخلع على ظاهرة الوحي كل خصائص المكاشفة، ولكن هذه–كما يجب أن نكرر–لا تنتج يقيناً مؤسسًا على إدراك، ذلك الذي يبدو أنه اليقين المقصود في الآيات التي ورد فيها ذِكر الوحي، والتي تتصل خاصة بإعداد (محمد) الشخصي لفهم طبيعة الظاهرة القرآنية) [1]

من خلال نقد مالك بن نبي لتعريف الوحي عند الشيخ محمد عبده نلحظ أنه يبين التناقض بين القول بأن النبي لا يدري كيف جاءت المعرفة، وقوله مع اليقين بأنها من عند الله، مما يؤدي إلى القول بالمكاشفة وهو ما يرفضه مالك، ولا شك أن الشيخ محمد عبده جانبه الصواب في هذه المسألة لتناقضه الذي في التعريف من جهة، ولمخالفته لتعريف العلماء من جهة أخرى.

٢–عدم التفرقة بين الإيحاء بمعنى الإلهام، والوحي من الله لأنبيائه:

ويستدل مالك بقوله: (ولنأخذ مثلًا الآية القصصية التي تذكر الإيحاء إلى الحواريين وما أجابوا به، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:١١١) فالوحي هنا يأخذ معنى (كلام عادي) موجه إلى الحواريين، وقد جسمته بكيفية ما إجابتهم نفسها، وهذه الإجابة تدل أيضًا عند هؤلاء الحواريين على يقين إدراكي ناتج بأكمله عن الوحي، وليس مصاحبًا له، فإن التيقن بصحة ظاهرة ما ليس

(١) الظاهرة القرآنية: ص ١٤٦

مصاحبًا في إدراكنا لوقت مشاهدتها، بل هو ينتج كصدى عقلي يصدر عنا) [١]

وبناء على ذلك فالفرق بين الإيحاء للحواريين، والوحي للنبي هو أن (يقين النبي في مصدر المعرفة الموحاة لا يجيء مع الوحي نفسه، ولا يؤلف جزءًا من طبيعته، بل إنه في صورته الكاملة من عمله الشعوري بوصفه رد فعل طبيعي لهذا الشعور إزاء ظاهرة خارجية.) [٢] ومعنى ذلك أن الوحي يأتي من خارج أحوال النبي الشخصية، ويكون أساسه اليقين والقناعة أنه من عند الله.

المطلب الثاني

الاستدلال على التفرقة بين الفكرة الشخصية التي تنبعث من نفسه البشرية، والوحي القرآني المنزل عليه ﷺ.

في استدلاله على يقينية الوحي الإلهي للنبي محمد ﷺ، يفرق مالك بن نبي بين معطيات الوحي المنزل، وبين الأفكار الشخصية أو النفسية للذات المحمدية، ويستدل مالك على ذلك بموضوعين، أو مسألتين:

المسألة الأولى: حديث تأبير النخل.

يستدل مالك بحديث تأبير النخل على أن (تلك النصيحة التي أبداها الرسول ﷺ حديثًا..ومع ذلك فها نحن أولاء نرى النبي قد ألغى بنفسه هذا الحديث أمام تجربة بستاني بسيط، مقررً بذلك أسبقية العقل والتجربة في سير النشاط الدنيوي. على أننا لا نجد حالة واحدة نسخ فيها النبي آية قرآنية بتجربة فردية حتى لو كانت تجربته هو نفسه) [٣]

(١) السابق: ص ١٤٧

(٢) السابق: ص ١٤٧

(٣) السابق: ص ١٦٧

وقد جاء حديث تأبير النخل في صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب (وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي): عن موسى بن طلحة عن أبيه قال: مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رءوس النخل. فقال: ما يصنع هؤلاء. فقالوا: يلقحونه يجعلون الذكر في الأنثى فيلقح. فقال رسول الله ﷺ: ما أظن يغني ذلك شيئا. قال: فأخبروا بذلك فتركوه، فأُخبِر رسول الله ﷺ بذلك فقال: إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإني إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فإني لن أكذب على الله عز وجل) حديث رقم ٢٣٦١

وكذلك جاء الحديث برواية أخرى في سنن ابن ماجة (عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، وَهِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ عَائِشَةَ ، أَنّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ أَصْوَاتًا فَقَالَ : " مَا هَذَا الصَّوْتُ " قَالُوا : النَّخْلُ يُؤَبِّرُونَهَا ، فَقَالَ : " لَوْ لَمْ يَفْعَلُوا لَصَلَحَ " فَلَمْ يُؤَبِّرُوا عَامَئِذٍ فَصَارَ شِيصًا، فَذَكَرُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ " : إِنْ كَانَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ فَشَأْنُكُمْ بِهِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أُمُورِ دِينِكُمْ فَإِلَيّ") (١)

في استدلاله بهذا الحديث على التفرقة بين الأفكار الشخصية التي تنبعث من المعرفة البشرية، والوحي القرآني المنزل، لا يقصد مالك بن من هذه التفرقة، القول بالفصل بين الديني والدنيوى كما هو عند العلمانيين، بل مقصده التفرقة بين ما هو رأي أو ظن في كلام النبي ﷺ، و ما هو وحي من الله، فقد كان عَرض رأيه في عملية تأبير النخل يسوقه على سبيل الاحتمال دون إلزام، ولذلك عقب على النتيجة قائلًا في الأول (إني إنما ظننت ظنًا) وفي الثاني (أنتم أعلم بامور دنياكم))

(١) سنن ابن ماجة: كتاب الرهون، باب تلقيح النخل، الحديث رقم ٢٤٦٤

المسألة الثانية: رجوع رسول الله ﷺ من الحديبية عندما قصد الحج في العام السادس من الهجرة، تمسكًا بأمر الله تعالى الموحى به إليه، يقول مالك بن نبي: (ترينا بعض الأحداث في تاريخه تمسكه الشديد المطلق في هذا الباب، هو لم يتخل مطلقًا عن آية قرآنية مهما كان الثمن، بل نراه يعدل فجأة عن الحج الذي كان قد اتخذ له أهبته في السنة السابقة، وكان السبب الوحيد لهذا العدول هو أن الوحي قد أمره به، فنزل على أمره) (١)

استنتاج: (فنحن إذن أمام فكرتين تتمثلان في نظر النبي ﷺ بقيمتين مختلفتين: الفكرة الشخصية التي تنبعث من معرفته البشرية، والوحي القرآني المنزل عليه.) (٢)

المطلب الثالث

الاستدلال بنزول القرآن الكريم منجمًا على بطلان ما يدعيه المستشرقون من تفسير للظاهرة القرآنية بـــ (نظرية اللاشعور النفسي)

في هذا الجانب يقوم مالك بن نبي بالنقد و الرد على محاولات المستشرقين تفسير الظاهرة القرآنية من خلال قولهم بـــ (نظرية اللاشعور) (فقد استخدموها لكي يفسروا لنا –كما يدعون– الظاهرة القرآنية بطريقة موضوعية، و من الصعب علينا أن نعتقد أن هؤلاء المؤلفين قد بذلوا أقل الجهد لكي يتفهموا الموضوع) (٣)

ويحلل مالك بن نبي مفهوم اللاشعور، مبيناً أنه: (مما لا شك فيه أن الذات الإنسانية تحتوي على مجال معين تتكون فيه الظواهر الغامضة التي لا تخضع لسلطان الشعور، كالأحلام مثلًا. فهذا المجال المظلم الذي تدوي فيه بعض طوارئ الحياة النفسية الشعورية في الفرد،

(١) الظاهرة القرآنية: ص ١٦٨
(٢) السابق: ص ١٦٨
(٣) السابق: ص ١٧٤

ذو علاقة واضحة بالحالات الشعورية، فلو أردنا لأطلقنا لفظ (لاشعور) على هذا المجال المظلم، وجميع العمليات التي تتم فيه أشكال (محوَّرة) لفكرة أو واقع مر بالشعور، فيمتص اللاشعور هذه العناصر الشعورية ويودعها مخيلته لكي يلقبها غالبًا إلى رموز، إلى أحلام، إلى حديث نفسي، إلى إلهام، لكن هذه الرموز تحتفظ بمعالم الفكرة أو الواقع الذي تولدت عنه. لا شك أن هذه العلاقات تتفاوت في غموضها، ولكن التحليل قد يكشف عنها: إذ من الممكن أن نجد في حلم أو كابوس الطريقة التي اتبعها اللاشعور في صياغة رمزه بالرجوع إلى حادث سابق تسبب فيه، فهو حساسية خاطفة أو تذكار قاس، أو هو راجع إلى يسر الهضم أو عسره...إلخ) [١]

وقد جئت بالنص السابق على طوله، لبيان أن (اللاشعور) جزء من طبيعة الإنسان ووعيه، وله دور في الاحتفاظ بمعالم الحياة النفسية الشعورية، وخيالاتها ورموزها وأحلامها، وهي أمور من الطبيعة الإنسانية، فهل يستقيم للمستشرقين تفسيرهم للقرآن، أي لمصدره، بأنه من اللاشعور المحمدي؟؟

يقول مالك بن نبي إن هذه الكلمة (اللاشعور) (لعبت على أقلام الكتاب دورًا نظريًا هامًا في تفسير الظاهرة القرآنية. فإذا أردنا أن نفهم معنى هذا المصطلح في نظريات في علم النفس، وجدناه في منتهى الغموض، فهو لا يعني شيئًا محددًا كما تعني مثلًا المصطلحات المعروفة كالتذكر والإرادة) [٢]

استنتاج: وبناء على ذلك فإنه: (عندما يتضح أن فكرة ما لا تخضع مطلقًا للذات الشعورية، فمن الممكن أن نفهم من هذا أنها بالضرورة أجنبية عن هذه الذات، وأنه لا محل لها في هذا اللاشعور،

(١) السابق: ص ١٧٤-١٧٥

(٢) الظاهرة القرآنية: ص ١٧٤

هذا هو المبدأ النقدي الذي نريد أن نتخذه هنا أساسًا لدراسة الوحي القرآني.) (١)

يتخذ مالك بن نبي في رده على قولهم بنظرية اللاشعور عدة مسالك منهجية تقوم على أساس أن الوحي بوصفه ظاهرة تمتد في حدود الزمن يتميز بخاصتين ظاهرتين هامتين هما: أ– تنجيم الوحي. ب– وحدته الكمية، و هذا المطلب أتناول فيه تحليل استدلالاته فيما يخص تنجيم الوحي، والمطلب التالي أتناول تحليل استدلالاته فيما يخص الوحدة الكمية.

يتخذ مالك بن نبي من مسألة نزول القرآن منجمًا دليلًا على بطلان ما يدعيه المستشرقون من قولهم بأن منبع القرآن مرتبط باللاشعور المحمدي، أي أنه ليس منزلًا ونابع من شعوره الذاتي، وفي بيان بطلان قولهم يذهب إلى أن:

١–من الناحية التاريخية، فإن (الوحي يضم في مجموعه ثلاثة وعشرين عامًا، فهو لا يكون ظاهرة مؤقتة أو خاطفة. ولقد نزلت الآيات منجمة بين كل وحي وما يليه، مدة انقطاع تتفاوت طولًا وقِصرًا، ولقد ينقطع الوحي مدة أو أكثر مما ينتظره النبي، وخاصة عندما يحتاج أن يتخذ قرارًا يعتقد أن من الواجب إلا يصدره قبل تصديق السماء عليه) (٢)

ومن الأمثلة التي يستدل بها مالك على ذلك:

موقفه ﷺ إزاء قرار الهجرة، وكذلك في المسائل التي كانت تحتم اتخاذ قرار في موقف محير مريب، بينما ينتظر على –أحر من الجمر– وحي الله الحاسم، ولقد تعرض النبي ﷺ لهذه الحيرة في حادثة الإفك التي لم يفصل فيها الوحي إلا بعد شهر من الانتظار على

(١) السابق: ص ١٧٥

(٢) السابق: ص ١٧٩

مضض. كان هذا يبدو في -الظاهر- تورطًا وحرجًا لم يلبث المستهزئون أن وجهوا من أجلها نقدهم الجارح إلى النبي ﷺ[1]

وتوجد أمثلة أخرى غير التي أوردها مالك، مثل انتظاره ﷺ للوحي بنبأ أهل الكهف، عندما جاءه اليهود يسألونه عنهم، و جوابات القرآن عن أسئلة الناس عن الأهِلة، والخمر والميسر، والمحيض، وغير ذلك، من الأسئلة التي وجهت للنبي صلى الله عليه و سلم، من الناس وقت تنزل الوحي.

استنتاجات:

يسأل مالك الجاحدين الطاعنين في الوحي (إن هناك سؤالًا كبيرًا يتردد حول هذا الموضوع: ألم يكن من الممكن أن يتدفق جملة واحدة من العبقرية الإنسانية التي ربما يكون قد صدر عنها ؟)[2]

يذهب مالك إلى أنه برجعونا خلال الزمن نستطيع أن نحكم بأهمية هذا التنجيم الفذ للوحي، و أهميته القصوى لنجاح الدعوة الإسلامية، ودوره التربوي في حقبة تتسم بميلاد دين وبزوغ حضارة، ويطرح مالك هذه التساؤلات التي تحمل في طياتها أجوبتها، و تبين كذلك مكامن الإعجاز في نزول الوحي منجمًا على النبي ﷺ:

١-إذ بما كنا نفسر من الوجهات التاريخية والاجتماعية والأدبية قرآنًا يهبط كأنما هو برق خاطف في ظلمات الجاهلية؟

٢-وماذا كان يعني هذا بالنسبة لتاريخ النبي ﷺ لو أنه كان قد تلقى وحيًا كليًا فجائيًا، لو أنه تلقاه بوصفه وثيقة، أي نوعًا من صحف التفويض لدى بني الإنسان؟

(١) السابق: ص ١٧٩

(٢) السابق: ص ١٨٠

٣- أي أمل كان يمكن أن يلتمسه عنده قبيل بدر مثلًا، لو انه بدلًا من أن يتوقع إمداد الملائكة ظل يكرر آية حفظها عن ظهر قلب؟

٤-كيف كان القرآن يؤدي دوره حيال طبيعة الإنسان التي جاء يصوغها في ذلك العصر، لو أنه سبق بنزوله أحداث حنين وأُحد؟

٥- وماذا كان يكون لو أنه لم يأت لكل ألم بعزائه العاجل، ولو أنه لم ينزل لكل تضحية جزاءها، ولكل هزيمة أملها، ولكل نصر درسه في الاحتشام، ولكل عقبة إشارة إلى ما تقتضيه من جهد، ولكل خطر أدبي أو مادي روح التشجيع اللازم لمواجهته؟

٦-وهل كان لدرسه أن يجد طريقه إلى قلوبهم وضمائرهم لو لم يكن نزوله تبعًا لأمثلة الحياة نفسها، والواقع المحيط بهم؟[١]

هذه هي التساؤلات التي تحمل في مضمونها إجابات على افتراءات الطاعنين المعاصرين في قولهم بالعبقرية والاستيحاء من اللاشعور، والقدامي الذين كانوا يقولون (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) وفي رده عليهم يذهب مالك بن نبي إلى أنه (ولو أن القرآن قد نزل جملة واحدة لتحول سريعًا إلى كلمة مقدسة خامدة و إلى فكرة ميتة، وإلى مجرد وثيقة دينية، لا مصدر يبعث الحياة في حضارة وليدة) [٢]

ويؤكد مالك بن نبي على أن بحثه في مسألة تجزئة الوحي في ضوء نظراته وتساؤلاته السابقة، جعله يدرك القيمة التربوية لهذا التنجيم، وهي في الواقع الطريقة التربوية الوحيدة الممكنة في حقبةٍ تتسم بميلاد دين وبزوغ حضارة (وسيهدي الوحي خلال ثلاثة وعشرين عامًا سير النبي وأصحابه خطوة خطوة نحو هذا الهدف البعيد، وهو يحوطهم في كل لحظة بالعناية الإلهية المناسبة. فهو يعزز جهودهم

(١) انظر: الظاهرة القرآنية: ص ١٨٠-١٨١

(٢) السابق: ص ١٨١

العظيمة، ويدفع أرواحهم وإرادتهم نحو هدف الملحمة الفريدة في التاريخ، فيكرم بآية صريحة قضاء شهيد أو استشهاد بطل) [١]

ويستدل مالك بالقرآن الكريم مبينًا أن القرآن يبرز هذه الخاصة الخفية وهو يخاطب النبي ﷺ بقوله تعالى﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان:٣٢) وبناء على استدلاله بالآية السابقة، يذهب إلى أن (نزول القرآن على نجوم وقد كان في اعتبار الجاهليين نقصًا شاذًا، يتجلى لنا بمراجعتنا الزمن والأحداث شرطًا أساسيًا ضروريًا لانتصار الدعوة المحمدية، ولن يشق علينا أن نجد في هذا النهج التربوي- الذي أثار سخرية القوم، وأزاغ النقد السطحي في عصرنا عن الجادة- طابع العلم العلوي الذي أملى (كلمة الله) بطرق التنجيم.) [٢]

(١) السابق: ص ١٨٠

(٢) السابق: ص ١٨١

المطلب الرابع

الاستدلال بالوحدة الكمية للقرآن الكريم على بطلان ما يدعيه المستشرقون من تفسير للظاهرة القرآنية بـــ (نظرية اللاشعور النفسي)

يقصد مالك بن نبي بالوحدة الكمية أن الوحي رغم أنه ظاهرة مُنجَّمة فهو متكون من وحدات متتالية هي الآيات، وهذه الخاصية عنده تسمى الوحدة الكمية، فكل وحي مستقل يضم وحدة جديدة إلى المجموعة القرآنية، تمثل من حيث الكمية أو السعة، الحد الأدنى وهو الآية، والحد الأقصى وهو السورة.(١)

ويذهب مالك إلى أن تأمل هذه الوحدة يتيح لنا بعض الملاحظات المفيدة عن العلاقة بين الذات المحمدية، والظاهرة القرآنية، ويستدل مالك بن نبي من خلال تلك الملاحظات على بطلان دعوى القائلين بنظرية اللاشعور، ومن أهم استنتاجاته:

١–الوحدة الكمية تتناسب في الزمن مع الحالة الخاصة التي هي (حالة التلقي) عند النبي ﷺ. وتنعدم إرادته–مؤقتاً– إثناء التلقي، إذ هو لا يستطيع في تلك اللحظات عن أن يغطى وجهه المحتقن، المتفصد عرقًا، فعن هذه الذات العاجزة، –وللحظات– تصدر وحدة التنزيل، وعلى هذه الذات يطبع الوحي فجأةً فقراته الوجيزة، تلك هي وحدة الظاهرة القرآنية من ناحية الكم، وهي التي ندرسها بالنسبة لهذه الذات العاجزة مؤقتاً، والتي هي (حامل الوحي) (٢).

٢– هذه الوحدة الكمية تؤدي بالضرورة فكرة واحدة، وأحيانًا مجموعة من الفِكَر المنتظمة في أسلوب منطقي، يمكننا ملاحظته في آيات القرآن، ودراسة هذه الفِكَر في ذاتها، وفي علاقتها ببقية حلقات السلسلة، تكشف عن قدرة خالقة ومنظمة، لا يمكن أن تنطوي عليها

(١) انظر: الظاهرة القرآنية، ص ١٨٢

(٢)انظر: السابق، ص ١٨٢

الذات المحمدية، في تلك الظروف النفسية الخاصة بحالة تلقيها الوحي، بل حتى في ظروفها الطبيعية. (١)

٣- ومن ملاحظات مالك بن نبي التي يستدل بها على الوحدة الكمية وعلاقتها بحالة النبي ﷺ، عند تلقيه الوحي، يتساءل مالك: (وحقيقة ماذا نقول في فكرة لدى إنسان لم يفكر فيها، ولا يمكنه أن يفكر فيها في الحالة الخاصة التي يعانيها؟ وماذا نقول في هذا النسق المتصل لتعاليم تؤديها هذه الفكرة، حين لا يتأسس هذا النسق على إرادة وتفكير منظم؟. إن من الجلي أننا لا يمكن أن نتصور ذلك في النظرة الأولى) (٢)

وهنا يقصد مالك بن نبي أن الوحي المنزل، لا يمكن للنبي ﷺ أن يأتي به من ذاته لما فيه من نسق متصل وتعاليم، والرسول في حالة التلقي يكون في حالة اتصال يفقد اثناءها إرادته وتفكيره الذاتي، وهذا ما يوضحه الافتراض الجدلي لمالك بن نبي (فلو افترضنا أن التفكير يمكن أن يحدث لاشعوريًا، ولا إراديًا لدى فرد ما، فإن النبي على الرغم من هذا لم يكن لديه الزمن المادي كيما يتصور وينظم تعاليمه في البرهة الخاطفة للوحي.) (٣)

٤- هذه الآيات تُعَبِّر عن تعاليم خارج حدود الفكر تمامًا في العصر المحمدي، بل لا يمكن أن تخطر في فكر إنساني(٤).

استدلال على الوحدة التشريعية:

ويستدل مالك بالنبي بكثير من الأمثلة التي يستدل بها على الوحدة الكمية، ومنها الوحدة التشريعية، كما في سورة النساء و(التي

(١)انظر: السابق، ص ١٨٢-١٨٣

(٢) السابق: ص ١٨٣

(٣) الظاهرة القرآنية: ص ١٨٣

(٤) السابق: ص ١٨٣

تقدم لنا نموذجًا تشريعيًا على قانون الأحوال الشخصية، فالفكرة التشريعية التي نبحثها تكتمل في الآيات (٢٢-٢٥))[١] ومن ذلك قوله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّـهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء: ٢٣)

يستدل مالك بن نبي من خلال ما في هذه الآية على بطلان ما ذهب إليه القائلون باللاشعور النفسي، من خلال المعطيات الاستدلالية التي يمكن بيانها في الجوانب الآتية:

١-فهذا نص أساسي يقرر في نفثة واحدة من الوحي تشريع الزواج بجميع تفاصيله، وشروطه القانونية الضرورية، وهو ينظم بصورة ما المحرمات من النساء، مشتملًا بذلك على حكمين جوهريين هما: الاستيعاب والحصر الكامل للحالات المشار إليها، وتصنيفها في نظام منطقي، وعليه فتعداد ثلاثة عشر حالة، وتصنيفها الواضح يستوجب ملابسات نفسية وزمنية متنافية مع خصائص الوحي.[٢] أي الحالة النفسية للنبي ﷺ أثناء تنزل الوحي.

٢-الحق أن النبي لم يفكر في الحالات المذكورة ولم ينظمها أيضًا، بينما ترينا مناقشة النص تصنيفًا للحالات المحرمة بدرجة القرابة العصبية والترتيب النزولي: الأم والبنت، والأخ وبنت الأخ وبنت الأخت من القرابة المباشرة-والمرضعة- وأخت الرضاعة من القرابة

(١) السابق: ص ١٨٤

(٢)انظر: السابق، ص ١٨٤

الرضاعية، ولا يحل للمرء أن يتزوج أم امرأته، أو ابنتها أو أختها: فدرجة القرابة هنا مقيسة بالنسبة للمرأة.

٣-ويمكن أن يُلحظ أيضًا في هذا التصنيف أفضلية رباط الذكر على رباط الأنثى، فابنة الأخ تذكر قبل ابنة الأخت، والقرابة المتصلة بالزوج قبل القرابة المتصلة بالزوجة مع أسبقية رباط الذكورة[١].

استنتاج:

من نتائج استدلالات مالك بن نبي السابقة من خلال الآية التي استدل بها على الوحدة التشريعة، أنه (لما كنا قد سلمنا بأن النبي صلوات الله عليه لم يجمع في نفسه هذه المحرمات قبل نزولها، وما كان له أن ينظمها خلال ومضة الوحي، أذ هو أم يتنافى مع ظروف حالة تلقيه للوحي، ومع المقياس الأول، فإن المسألة تظل معلقة فيما إذ وجب تفسيرها طبقًا للأسلوب الديكارتي. و إنا لمضطرون هنا -كما اضطررنا هنالك -إلى أن نبحث عن تفسير للظاهرة خارج هذا النطاق.) [٢]

استدلال على الوحدة التاريخية:

إن الوحدة الكمية في القرآن الكريم لا تقتصر على الوحدة التشريعية فقط، بل تشمل جوانب كثيرة أخرى منها الوحدة التاريخية، ومن الآيات التي يستدل بها مالك على ذلك، قوله تعالى:

١-﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ

٢-قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّـهِ

٣-وَاللَّـهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ

٤-وَاللَّـهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ (المنافقون:١)

(١)انظر: الظاهرة القرآنية:، ص ١٨٤-١٨٥.

(٢)انظر: السابق ص ١٨٥.

هذه الآية يستدل بها مالك، ويمكن تحليل طريقة استدلاله بها في المحاور التالية:

١–قصد مالك إلى ترقيمها، وتجزئتها أربعة أجزاء، يدرس من خلالها نظام الفقرات.

٢–تظهر المسحة التاريخية للآية في الفقرة الأولى التي تصور لنا حادثًا عاديًا هو حضور المنافقين بين يدي النبي ﷺ، وهذه الفقرة جاءت في مكانها لأن الهدف العاجل من هذه الآية هو أن تصف لنا غدر لنا غدر المنافقين وكذبهم، فهي تعطينا وصفًا لإطار الحادثة، وهو كون المنافقين في حضرة النبي ﷺ، أما الأفكار التالية لذلك فقد جاءت وفق نظام طبيعي يتبع درجة الأهمية، أي ينتقل من الفكرة الرئيسية إلى الفكرة التابعة، وخاصة في الأسلوب الخطابي كما هو شأن القرآن.

٣– والفكرة الرئيسية هنا هي أن يعلن غدر المنافقين، وأن يكذبهم في مقالتهم.

٤– ويطبق مالك الملاحظات التحليلية السابقة على ترتيب الأفكار التي تؤخذ من الآية فتكون هكذا:

(١) إذا جاءك المنافقون.

(٢) قالوا نشهد إنك لرسول الله.

(٣) والله يعلم إنك لرسوله.

(٤) والله يشهد إن المنافقون لكاذبون.

يقارن مالك بين الآية كما هي في القرآن الكريم، والآية كما هي في التركيب العربي العادي كما جاءت في الترتيب السابق وفق أرقامها، فيذهب إلى أن:

الآية في بمعناها في صورتها الثانية وفق التركيب العربي، كاملة الفقرات، ومطابقة للتركيب العربي، فيما عدا القلب الذي طرأ على

وضع الجملتين (٣، ٤) لنردها إلى ترتيبها الطبيعي، ومع ذلك فالترتيب الثاني وفق التركيب العربي، يتعرض في نسقه الجديد لنقد في الصميم، إذ تكون بتغيير نسقها القرآني برهاناً خطيرًا ضد القيمة العلوية للوحي، لأن معنى الفقرة (٤) كله قد أصبح في التنظيم الجديد تكذيبًا، لا لغدر المنافقين، بل لإقرارهم وشهادتهم بأنه رسول الله. (١)

بناء على تلك التفرقة بين الأسلوب القرآني، والتركيب العربي الطبيعي للجملة؛ فإن مالكًا يستنتج أن (في التركيب القرآني دقة مذهلة، لأن الفقرة الثالثة التابعة تؤكد أولًا صحة رسالة النبي ﷺ –وهو ما شهد به المنافقون–قبل أن يعلن كذبهم في الفقرة الرابعة الرئيسية، هذا الترتيب الدقيق الذي يتميز بالعمق واليقظة البالغة يتنافى–كما يجب أن نكرر– مع الظروف النفسية والزمنية التي تبرق فيها الوحدة الكمية للقرآن، حتى كأنما هي ومضة خاطفة.) (٢)

وهذا الترتيب الدقيق العميق يتنافى كذلك (مع الارتجال والتلقائية لأسلوب القرآن..أن الخطاب القرآني من الناحية الشكلية، يعد عرضًا شفويًا لا تظهر فيه الفكرة بالزمن المادي الكافي، لتحقيق الدقة المنطقية في الأسلوب المكتوب) (٣)

ويقصد مالك أن الوقت السريع لنزول الوحي على النبي ﷺ في لمحة أو ومضة أو سرعة، ثم تلاوته له بعد ذلك، يتنافى مع دعوى الطاعنين بأنه ارتجال منه، وأن تلك الومضة لا تصلح في سرعتها لأن يقوم بتأليف أو فكر يعبر من خلاله بهذا الأسلوب، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

(١) انظر: الظاهرة القرآنية، ص ١٨٧
(٢) السابق: ص ١٨٧
(٣) السابق: ص ١٨٧

وبناء على النماذج السابقة التي للاستدلال بالوحدة الكمية على إعجاز القرآن، وبطلان دعاوى الطاعنين فيه، يؤكد مالك بن نبي على أن (بحث الوحدة الكمية، تلك الومضة الروحية من الوحي، يبرز في آيات القرآن دلائل ترتيب وتفكير وإرادة، تعجز عن تفسيرها في حدود المعلومات التاريخية، والنفسية، التي أثبتناها للذات المحمدية.) [١]

(١) السابق: ص ١٨٧

المبحث الثالث

الاستدلال على بطلان دعواهم أن القرآن مزيج من الكتب المقدسة السابقة.

من مزاعم المستشرقين القول بأن مصدر القرآن الكريم هو التوراة والإنجيل، من ذلك ما ادعاه تيودور نودلكه (١٨٣٧_١٩٣٠م) من أن أفضل ما في الإسلام مأخوذ من اليهود والمسيحيين (لكن اكتسب فيها محمد هذه التعاليم، واعتبرها وحيًا أُنزل عليه، ليبشر به الناس تجعل منه نبيًا حقًا.. إن محمدًا حمل طويلًا في وحدته كل ما تسلمه من الغرباء... وجعله يتفاعل وتفكيره، ثم أعاد صياغته بحسب فكره، حتى أجبره أخيرًا الصوت الداخلي الحازم على أن يبرز لبني قومه رغم الخطر والسخرية اللذين تعرض لهما.) [١] ويصرح بدعواه عن مصدر الوحي القرآني بقوله: (إن المصدر الصحيح للوحي الذي نُزِّل على النبي حرفيًا، بحسب إيمان المسلمين البسيط وبحسب اعتقاد القرون الوسطى وبعض المعاصرين، هو وبدون شك ما تحمله الكتابات اليهودية. وتعاليم محمد في جُلها تنطوي في أقدم السور على ما يشير بلا لبس إلى مصدرها. لهذا لا لزوم للتحليل لنكتشف أن أكثر قصص الأنبياء في القرآن، لا بل الكثير من التعاليم والفروض، هي ذات أصل يهودي، أما تأثير الإنجيل على القرآن فهو دون ذلك بكثير، وسيفضي بنا البحث المتمعن عما هو يهودي ومسيحي في القرآن إلى الاقتناع بأن التعاليم الأساسية التي يشترك فيها الإسلام والمسيحية هي ذات صبغة يهودية..) [٢]

(١) تاريخ القرآن: تيودور نودلكه، ترجمه عن الطبعة الألمانية الثانية التي عدلها فرديش شفالي:د.جورج تامر، بالتعاون مع فريق عمل مكون من:عبلة معلوف، و د. خير الدين عبدالهادي، د.نقولا أبو مراد، ص ٤، ط١، بيروت، ٢٠٠٤م.

(٢) السابق: ص ٧.

وتبعه في ذلك كارل بروكلمان كارل بروكلمان (١٨٦٨_١٩٥٦م) (ولا حاجة هنا إلى ذكر تاريخ دعوته التي ضاهى بها في مكة أسلوب الدعوة النصرانية، ولعله كان يعرف هذه الدعوى عن طريق المبشرين النساطرة) [١]

وكذلك يدعي ألفريد جيوم (١٨٨٨_ ١٩٦٦م) أن (بلاد العرب كلها كانت مليئة بمعتنقي ديانتي التوحيد اليهودية والنصرانية، و لا يعقل أن رجلًا ضاق بتعاليم قومه، وأخذ يجد في البحث عن هداية إلهية، لم يحاول أن يتعرف على دين أولئك الذين يدعون إلى عبادة الواحد الحق) [٢] ويقول (لقد أعلن محمد أنه أتى برسالة من عند الله يؤيد فيها ما أنزل على اليهود والنصارى، ومن الطبيعي أن يتجه تفكيرنا إلى الظن بوجود اتصال بينه وبينهم.) [٣]

وقد لاحظ د. مصطفى السباعي: (أن المستشرقين اليهود أمثال – جولد تسهير وشاخت– هم أشد حرصًا على ادعاء استمداد الإسلام من اليهودية وتأثيرها فيه، أما المستشرقون المسيحيون فيجرون وراءهم في هذه الدعوى؛ إذ ليس في المسيحية تشريع يستطيعون أن يزعموا تأثر الإسلام به وأخذه منه، وإنما فيه مبادئ أخلاقية يزعمون أنها أثرت في الإسلام، ودخلت عليه منها، كأن المفروض في الديانات الإلهية أن تتعارض مبادؤها الأخلاقية، وكأن الذي أوحى بدين هو غير الذي أوحى بدين آخر، فتعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا) [٤]

---

(١) تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان، ترجمة وتحقيق وتعليق: د.عبدالحليم النجار، ص ١٣٤، ط٥، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩م

(٢) الإسلام: ألفريد جيوم ، ترجمة: مصطفى هدارة، و د.شوقي اليماني السكري، ص ٣١، ط١،مطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة، ١٩٥٨م.

(٣) السابق: ص ٦١.

(٤) الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: د. مصطفى السباعي، ص ٢٧–٢٨، دار الوراق، القاهرة، د ت.

هذه مجرد نماذج لما انتشر ولا زال من افتراءات وأحكام غير موضوعية ولا علمية في كتابات علماء الغرب عن الإسلام، وهي التي لا زالت تُتداول في المؤسسات العلمية والمكتبات، ويعتمد عليها الباحثين والدارسين للإسلام، وقد تناول مالك بن هذه القضية وهي الطعن في مصدر القرآن، وهذا ما أقوم بتحليله في المطالب التالية من هذا المبحث.

المطلب الأول

الاستدلال على التفرقة بين الثقافات الدينية في الجزيرة العربية و القرآن الكريم.

(نفي تأثر الرسول ﷺ بالمحيط الذي نشأ فيه بأي كُتُبٍ أو ثقافات سائدة في عصره):

في إطار دفاعه عن الإسلام ضد مطاعن الممستشرقين، يستدل مالك بن نبي على أهمية بيان أن رسول الله ﷺ لم يتأثر بأي كُتب أو ثقافات دينية كانت سائدة في عصره، فإن (القرآن يثبت تمامًا في النطاق الزمني هذه النسبة بين المصدرين في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ (الشورى:٥٢) فقوله: ﴿ مَا كُنتَ ﴾ أي قبل غار حراء، و النبي في تلك الفترة لم يكن لديه سوى معلوماته الشخصية، وهي معلومات تبدو لنا عديمة الصلة بالوحي القرآني، إذا ما أعطينا الآية المذكورة كل معناها التاريخي، والآية تثبت عَرَضًا –ولكن بطريقة صريحة– مصدر الوحي القرآني بعد حِراء، وهو على كل حال ليس قبل (إيحاء الروح) المأخوذ من قوله: ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا ﴾ هذه النقطة ثابتة تاريخيًا، لأن الآية التي ندرسها قد مرت أولًا بشعور النبي، وتعرضت لنقده الذاتي الذي يجيد تمامًا هذا الفصل الضروري لاقتناعه الخاص. وفضلًا عن ذلك فإن القرآن قد دأب على تذكيره وتأكيد هذا الفصل في آيات كثيرة،

وهاك آية تؤدي ما أدته الأولى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٨)) [١]

استنتاج: (فتاريخ الوحي القرآني يبدأ إذن (بعد القرآن) وليس (قبله) وهذا ما توحيه الآية على وجه التحديد.) [٢]

المطلب الثاني

العلاقة بين القرآن والتوراة والإنجيل.

في رده على مطاعن المستشرقين الذين يزعمون أن القرآن عبارة عن انتخاب، و مزيج من اليهودية والنصرانية وآثار أجنبية[٣]، يرى مالك بن نبي أن المتجادلين حول علاقة القرآن بالتوراة والإنجيل، لم يدركوا عناصر المشكلة كلها، ولم يتصورها من سائر وجوهها[٤].

والمرجعية الحقة تتمثل في بيان القرآن لعلاقته بالكتب السابقة خاصة التوراة والإنجيل، (إن القرآن الكريم يؤكد مستعليًا صلته بالكتاب المقدس، فهو يطلب دائمًا مكانه في الدورة التوحيدية، وهو بهذا وبذاك يثبت–باعتداد– التشابه بينه وبين التوراة والإنجيل، وهو يؤكد هذه القرابة صراحة، ويُلفِت إليها النبي ﷺ نفسه كلما جدت مناسبة) [٥]

ومقصد مالك بن نبي بيان أن هناك علاقة بين القرآن والتوراة والإنجيل أثبتها القرآن، ولفت إليها نظر النبي ﷺ، ويستدل على تلك القرابة بقوله تعالى﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّـهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (يونس:٣٧)

---

(١) الظاهرة القرآنية: ص ١٧٠

(٢) السابق: ص ١٧٠

(٣) انظر: مذاهب التفسير الإسلامي، جولد زيهر، ص ١٠

(٤) انظر: الظاهرة القرآنية، ص ١٩٩

(٥) السابق: ص ١٩٩

وطبيعة هذا القرابة أو العلاقة، ليست كما يدعيها المستشرقون بأنها تلفيق من التوراة والإنجيل، بل هي جاءت في القرآن تتسم (بطابعها الخاص: فهو في كثير من المواضيع يبدو مكملًا أو مصححًا معلومات الكتاب المقدس. وعلى الرغم من القرآن يعلن بكل وضوح هذا التشابه والقرآبة إلى الكتب السابقة، فإنه يحتفظ بصورته الخاصة في كل فصل من فصول الفكرة التوحيدية) [١]

يلاحظ من خلال النص السابق أن مالكًا يقصد التوراة والإنجيل الحاليين، لأنه يقول بأن القرآن مكمل ومصحح، فهو مكمل لهما من جهة كونها أثناء تنزلهما وعدم طرؤ التحريف لهما، ومصحح لها على مدار الأزمنة والأمكنة، مما لحقهما من تحريف وتغيير.

المطلب الثالث

الوحدانية والأخلاق بين القرآن والتوراة والإنجيل.

فيما يخص توحيد الله –سبحانه وتعالى– جاء في القرآن الكريم لتصحيح ما وقع في التوراة والإنجيل من تحريف في الاعتقاد في الله؛ يقارن مالك بين القرآن وبينها، فالتوحيد في القرآن (يهدف من الناحية الميتافيزيقية إلى إثبات وحدانية الله، إذ هو العلة الوحيدة التي تدخل في تكوين الظواهر وتطورها، وهو الذي يحكمها بما يتصف به من القدرة المطلقة والبقاء والإرادة والعلم. إلخ....وإن الإسلام سيعرض عقيدته الغيبية الخاصة بطريقة أكثر مطابقة للعقل، وأكثر تدقيقًا وفي اتجاه أكثر روحية.) [٢]

المقصود بالميتافيزيقا أي عالم الغيب، ومالك يقصد هنا إلى بيان أن الله سبحانه هو مسبب الأسباب والمسببات لكل الظواهر الكونية وتطورها، وهذا معنى قوله: العلة الوحيدة في تكوين الظواهر

(١)السابق: ص ١٩٩

(٢)السابق: ص ٢٠٠

وتطورها، بما يتصف به من قدرة مطلقة. هذا عن مفهوم التوحيد، وعلاقة الله بالكون، وينتقل مالك بعد ذلك إلى المقارنة بين التوحيد في القرآن، والتوحيد أو مفهوم الإله في التوراة والإنجيل.

ففيما يخص التوراه يبين ما وقع من تشبيه في مفهوم الإله لدى اليهود، ويستدل من التوراة على وقوع التشبيه بقوله (والواقع أن الكتب العبرية تكشف عن بعض التشبيه، ومن المحتمل أن يكون قد دخلها بطريقة مفاجئة عقب (التلفيق)..ويتجلى هذا التشبيه في رؤيا يعقوب المروية في سفر التكوين:(وَرَأَى حُلْمًا، وَإِذَا سُلَّمٌ مَنْصُوبَةٌ عَلَى الأَرْضِ وَرَأْسُهَا يَمَسُّ السَّمَاءَ، وَهُوَذَا مَلاَئِكَةُ الله صَاعِدَةٌ وَنَازِلَةٌ عَلَيْهَا. وَ هُوَ ذَا الرَّبُّ وَاقِفٌ عَلَيْهَا، فَقَالَ: أَنَا الرَّبُّ إِلهُ إِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ.) [١] (سفر التكوين: الإصحاح الثامن والعشرون، الفقرتان ١٢، ١٣)

ولم يقتصر التشويه العقائدي في التوراة المحرفة على الشبيه في مفهوم الإله، بل تعدى ذلك إلى النزعة القومية في مفهوم الإله في التوراة المحرفة (فإن تعاليم الربانيين كانت قد أقامت على الوعد الذي تلقاه إبراهيم، وعلى ميزة الاختيار التي كانت ليعقوب عقيدة دينية قومية: فالله سبحانه وتعالى قد أصبح في تلك العقيدة –على وجه التقريب–ألوهية قومية، حتى إن جوهر الحركة النبوية منذ (عاموس) إلى (أشعياء الثاني) سيكون بالتحديد رد فعل لهذه الروح الأنانية، فجميع الأنبياء الذين ينتمون إلى تلك الحركة الإصلاحية كأرمياء سيبذلون قصارى جهدهم ليؤكدوا وجود الله رب العالمين) [٢]

أما العقيدة النصرانية المحرفة فقد اخترعت من جانبها ذاتًا إنسانية في الأقانيم الإلهية، وبهذا نشأت عقيدة جوهرها: (الرب الحي تجسد

(١)السابق: ص ٢٠٠

(٢)الظاهرة القرآنية: ص ٢٠٠–٢٠١

إنسان) وتولد عن هذه العقيدة الذي أنشأ عقيدة دينية ثالوثية، قائمة على سر الثالوث الأقدس. (١)

ربما تبدو القضايا العقدية السابق ذكرها بدهية مقررة عندنا نحن المسلمون، ولكن لما كان مالك بن نبي يريد في خطابه الموجه لدحض دعاوى الطاعنين بأن القرآن ملفق من معلومات من التوراة والإنجيل، فقد لجأ إلى المقارنة بين توحيد الله ومفهومه في التوراة والأناجيل المعاصرة إجمالًا؛ ليبين تهافت تلك الدعاوى.

استنتاج:

بالمقارنة بين مفاهيم التوحيد في الكتب الثلاث يمكن بلورة الاستنتاجات الاستدلالية لدى مالك بن نبي في المحورين التاليين:

١-بينما اتجه الوحي القرآني إلى ان يقرر النتيجة الحاسمة للفكرة التوحيدية: (الله واحد، مخالف للحوادث، رب العالمين). فأخرج بهذه الطريقة الحاسمة ذات الله جل شأنه من نطاق الأنانية اليهودية، والتعدد المسيحي.

٢-ولقد تقررت هذه العقيدة الجوهرية للإسلام الموحد في سورة من أربع آيات: ﴿قُلْ هُوَ اللَّـهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّـهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص: ١-٤) وفي هذه الآيات يتجلى الإخلاص طابعًا خاصًا بالفكرة القرآنية؛ فلقد قضى على فكرتي التعدد والتشبيه دون نقض أو إبرام. (٢)

ينتقل مالك بن نبي من مناقشة المقارنة بين العقائد إجمالًا كما سبق في المطالب السابقة، إلى مناقشة الأخلاق، لكنه يبدأ في هذا الجانب ببيان الأخلاق اللادينية من حيث مصدر الإلزام بها وغاياتها والجزاء عليها، وهو يقصد بذلك الأخلاق العلمانية، فالأخلاق اللادينية (بقدر ما لهذا التعبير من معنى -تقيم منافع الإنسان على أساس المنافع الشخصية

(١) انظر: السابق، ص ٢٠١

(٢) انظر: السابق، ص ٢٠١

العاجلة، التي صارت أساس المجتمع المدني) [١] إذًا الأخلاق اللادينية أي التي مصدرها غير ديني، فهي أخلاق وضعية دنيوية، قيمة الإعمال فيها تكون بحسب تحقيق المنافع سواء وافقت الدين أو خالفته، و الناس فيها يعتمدون على ما يرتبط بها من قوانين وضعية تضبط تلك العلاقات القائمة على أساس المنفعة. أما الأخلاق الدينية ((التوحيدية) تحترم أيضًا المنفعة الشخصية، ولكنها تمتاز برعاية منافع الآخرين، وهي بذلك تدفع الفرد إلى أن ينشد دائمًا ثواب الله قبل أن يهدف إلى فائدته.) [٢]

أما عن المقارنة بين القرآن والتوارة والإنجيل؛ فإن مالك يذهب إلى أن الثواب على الأفعال هو الذي من أجله (صاغت التوراة الميثاق الخلقي الأول للإنسانية في وصاياها العشر، وساق الإنجيل توجيهاته في عِظة المسيح على الجبل، ولكن الأمر في الكتابين كليهما أمر مبدأ أخلاقي سلبي، فهو يأمر الناس بالكف عن فعل الشر في حالة، وبعدم مقاومة الشر في أخرى) ص ٢٠٧

ولكن هل تقييم الجانب الأخلاقي في التوراة والإنجيل، والحكم عليه يكون من خلال الوصايا العشر، وعظة المسيح على الجبل؟ أظن أن مالكًا نفسه لا يقصد ذلك وإنما استدل بالأمرين على أساس أنها جوهر الأخلاق في التوراة والإنجيل، ولا شك أنه قد اطلع على باقي النصوص المعبرة عن الأخلاق في الإنجيل والتوراة.

ما يقصده مالك في النص السابق أن المنظومة الأخلاقية أو المنهج الأخلاقي التوراتي الإنجيلي منهج ناقص، من حيث أمره بالكف عن فعل الشر، وترك مقاومة الشر، وربما يتضح ذلك في قول تعالى﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المائدة:٧٨–٧٩) والمقصود أن التشويه

(١) السابق: ص ٢٠٧

(٢) السابق: ص ٢٠٧

أو التحريف للتوراة والإنجيل قد لحق الجانب الإخلاقي كما طال الجانب العقائدي، وأن الوصايا العشر، وعظات المسيح على الجبل لم تفلح في تقويم سلوك هؤلاء القوم إلا أمة قائمة يتلون كتاب الله آناء الليل وهم يسجدون.

ويمكن بلورة آراء مالك بن نبي حول مسألة التكامل في منهج الأخلاق التوحيدية يتضح في المنهج الأخلاقي في القرآن الكريم في الجوانب الآتية:

١-فعل الخير ولزوم مقاومة الشر: فالقرآن يأتي بمبدأ إيجابي أساسي، كيما يكمل منهج الأخلاق التوحيدية، ذلك المبدأ هو (لزوم مقاومة الشر) ويستدل بقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ ﴾ (آل عمران:١١٠)

٢-يقر القرآن عقيدة الجزاء أساسًا للأخلاق التوحيدية، ويقيم بناءه الخلقي على أساس القيمة الخلقية للفرد، وعلى العاقبة الدنيوية للجماعة، فأما الفرد فإن ثوابه مستحق يوم الحساب، ومن أجل هذا يقرر القرآن صراحة القيمة الدينية للفرد في قوله تعالى﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ (المدثر:١١)

٣-أما الجماعة فإن جزاءها عاجل، يلفتنا القرآن إلى قصة الجزاء في هذه الدنيا حين يدعونا دائمًا إلى تأمل العقاب الدنيوي في عواقب الأمم البائدة، والحضارات الدارسة: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (الأنعام:١١) بل إن القرآن ليعنف تلك الأمم في آية أخرى فيقول: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ (الأنعام:٦) [١]

(١) انظر: الظاهرة القرآنية، ص ٢٠٦-٢٠٨

المطلب الرابع

الأخرويات بين القرآن والتوراة والإنجيل.

في محاصرة مالك بن نبي لدعاوى المستشرقين، نجده يبين كل ما يتميز به القرآن من عقائد مخالفة للتوراة والإنجيل، وفي هذا دحض لدعاواهم المزعومة، ومن العقائد الجوهرية (خلود الروح ..في الثقافة التوحيدية، يستتبع نتائج منطقية هي: نهاية العالم، يوم الحساب، الجنة، النار.) [١]

وفيما يخص التوراة والإنجيل، فإن مالك يذهب إلى أن (هذا المجال لم تلق عليه الكتب العبرية إلا شعاعًا خافتًا، لأنها كانت مهتمة بالتنظيم الاجتماعي لأول بيئة توحيدية. ثم جاء الإنجيل فزاده إيضاحًا حين ألح على بني إسرائيل في تذكيرهم (بأيام الله) ذلك المفهوم الموجه إلى مجتمع موحد قطع في طريق التطور شوطًا) [٢]

هذا وإن إن جزم مالك بن نبي بأن الكتب العبرية لم تُلق على اليوم الآخر إلا وجودًا خافتًا لاهتمامها بأول تنظيم اجتماعي لأول بيئة توحيدية، لا يؤخذ على إطلاقه إلا إذا كانت بيدنا التوراة الأصلية غير المحرفة؛ لأن الكتابات العبرية –حسب تعبير مالك– يعود فيها خفوت الحديث عن اليوم الآخر بسبب طبيعة اليهود ذاتها، وبسبب ما طرأ على التوراة وكذلك الإنجيل من تحريف، من جهة أخرى. فكتابهم الحالي (التوراة تخلو تمامًا من ذِكر الجنة والنار، والبعث والنشور، وكذلك سائر الكتب الملحقة بها إلا نذرًا يسيرًا)[٣]

(١) السابق: ص ٢٠٣

(٢)الظاهرة القرآنية: ص ٢٠٣

(٣) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية: د.سعود الخلف، ص ١٢٠

استنتاج:

بالمقارنة بين الملامح العامة لليوم الآخر في الكتب الثلاث يمكن بلورة الاستنتاجات الاستدلالية لدى مالك بن نبي في المحاور التالية:

١-القرآن يبرز في هذا المجال الأخروي إبرازًا مؤثرًا، فلقد قصت فيه رواية الخلود بنبرة خاشعة رهيبة، في أسلوب فاق الذروة في بلاغته، وقد بثت في انحائه صور ومشاهد تسكب الخشية في قلوب العباد مما لا يمكن معه لإنسان-حتى في هذه الأيام- أن يصدف عن مشاهده الهائلة.

٢-إن مشاهد القيامة في القرآن ذات حقائق خلابة، والشخصيات التي تحتويها تتكلم وتتحرك، فالملَك، والشيطان، والأبرار والأشرار، كل هؤلاء يتسمون بواقعية لا تغفل أدق التفاصيل النفسية، ولا تهمل أية كلمة من شأنها أن تُذَكِّر بأهوال تلك الساعات الرهيبة.

٣-والزمن نفسه يمتد والحكم يصدر و ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج:٤) ثم يُعلن مشهد الختام في ذلك الفصل الرهيب: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾(الحديد: ١٣) هذا هو المقام الخالد للسعداء و للأشقياء، وليس في الوجود كله مشهد يماثل هذا المشهد في الحركة، أو يفوقه في الألوان التي تتوالى في مختلف سور القرآن. (١)

(١) انظر: السابق، ص ٢٠٣-٢٠٤

المطلب الخامس

الكونيات بين القرآن والتوراة

ويستمر مالك بن في المقارنة بين القرآن الكريم، والتوراة ، للمزيد من الدحض لافتراءات المستشرقين، وإثبات تمايز القرآن عن التوراة، ففي سفر التكوين نجد كيفية الأمر بالخلق في تلك العبارات: (وقال الله ليكن نور فكان نور) (سفر التكوين: الأصحاح الأول فقرة٤) هذه الصورة تذكرنا بطريقة فريدة بعبارة القرآن (كن فيكون) (البقرة: ١١٨) [١]

ورغم التشابه بين العبارتين فإن القرآن يصف لنا دائمًا عملية هذا التكوين الآمر، فهو يحدثنا أولًا عن وحدة مادة الكون الأولى في قوله ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء:٣٠) ثم يحدثنا عن الحالة البدائية لتلك المادة: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ (فصلت:١١) ثم إن الله جلت قدرته يحدد لكل كوكب فُلكَه ومستقره، مجزِّئًا بذلك المادة في المكان، ومقررًا جميع القوانين التي تحكم الظاهرة الطبيعية، ثم تكون الظاهرة الحيوية: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (الأنبياء: ٣٠) وهنالك آيات كثيرة تكمل هذه اللوحة النموذجية لصورة التكوين في القرآن، وعلى كلٍ فإن الفعل الأولى الخالق أمر شفوي. [٢]

وعقيدة الإيمان بأن الله خلق الكون من عدم بأمره كن، تتصادم مع القانون القائل (لا شيء يوجد من العدم) ولم يَفُت مالك بن نبي التطرق لهذه المشكلة التي كانت ولا زالت من المشكلات التي أثيرت بين الماديين، والدينيين، ويصف مالك هذه المشكلة بأنه في كيفية الخلق هذه

(١) انظر: السابق، ص ٢٠٥

(٢) انظر: السابق، ص ٢٠٥-٢٠٦

أي الخلق المباشر للأشياء (ما يصطدم مع أفكار الذين يعتمدون على فرض لافوازييه[١] أي لا شيء يوجد من العدم، ولا شيء يدخل في العدم، ومعنى هذا أنه لا يمكن أن يخلق شيء من لا شيء.) [٢]

فما هو الحل الذي يقدمه مالك لتلك المشكلة وهي قولهم (لاشيء يوجد من العدم..) ؟ يذهب مالك إلى أنه (ينبغي أن نعلم أنه من الوجهة المنطقية المحضة لا يوجد أدنى تناف عسير على الرد بين العقل والمبدأ الخالق في((كن فيكون)) ولا يستطيع مخلوق أن يقيم على ذلك (أي الفرض العلمي) برهاناً تجريبيًا. أما الدين فإنه يقرر أن الله هو الذي يملك سر التكوين بين الكاف والنون) [٣]

في النص السابق لم يقدم مالك حلًا إلا الاعتراف باستحالة البرهان التجريبي للفرض العلمي، و تقرير أن الله هو الذي يملك سر التكوين. ثم عاد مالك بعد ذلك ليحكي قول الطبيعيين بقوله: (يجيب الطبيعيون: تؤول المادة في التحليل الأخير إلى نوع من الطاقة) ص ٢٠٦ ثم يتساءل (ألا يمكن أن تُفَسَّر (كلمة الله) نفسها بأنها نوع من الطاقة، الطاقة في أتم أشكالها (بما أنها خالقة؟) أليس لنا الحق في أن نعد المادة في مجموعها مجرد تشكيل وتأليف لهذه الـــــــ (كن) الخالقة؟ ..) [٤]

وبناء على ما سبق نفهم معنى قول مالك بأنه يقصد: (كلمة الله) بمعنى أمر الله، وقوله (كن) بمعنى أن الله خلق وأوجد الأشياء مباشرة. و مجموع هذه الأشياء (المادة) مجرد تشكيل وتأليف لهذه الكن الخالقة.

---

(١) أنطوان لوران لافوازييه (١٧٤٣-١٧٩٤م) عالم كيمياء فرنسي، وأول من صاغ قانون حفظ المادة، وغير ذلك من الأفكار العلمية، راجع ترجمته في: حياة عباقرة العلم لافوازييه مكتشف الأكسجين، تأليف: حسن أحمد جغام، ص ٣ وما بعدها،دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، د.ت

(٢) الظاهرة القرآنية، ٢٠٦

(٣) السابق، ٢٠٦

(٤) السابق، ٢٠٦

وكذلك إيماننا بالله الخالق البارئ المصور، يتضمن الإيمان بأنه القوي الذي لا يعجزه شيء، والقوة من ضمنها الطاقة أي القوة في أتم أشكالها.

ولكن على طريقة مالك بن نبي نتساءل: هل يؤمن القائلين بهذا الفرض العلمي من علماء الغرب وغيرهم بوجود الله ؟ و أنه خالق للكون من العدم، وأوجده بأمره كن ؟ أم أن إيمانهم بالوضعي المنطقي جعلهم ينكرون جميع ما سوى المادة، وبعبارة أخرى ينكرون عالم الغيب؟

جدير بالذكر أن مالك بن نبي يؤكد على ضرورة بيان أن القرآن يؤسس لتكوين الروح العلمية بقوله: (يجب أن نتساءل إذا ما كان يستطيع القرآن أن يخلق في مجتمع ما المناخ المناسب للروح العلمي، وأن يطلق فيه الأجهزة النفسية الضرورية لتقبل العلم من ناحية وتبليغه من ناحية أخرى). (١)

ولا شك أن مالكًا يقصد بيان دور القرآن في تكوين الروح العلمية وإطلاق الطاقات المعرفية، مع بيان أن المقصود بذلك (أن القرآن الكريم لم يأت قطعًا، وبصورة مباشرة، لا بالحساب العشري ولا بالجبر، ولكنه أتى بالمناخ الجديد الذي يتيح للعلم أن يتطور...ينفتح القرآن على الجانب العقلي اقرأ باسم ربك....إن الحرف ينقل ويبلغ الروح، وفي نفس الوقت يحفظه من الضياع) (٢)

(١) إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث: مالك بن نبي، ص ٢٦.
(٢) السابق، ص ٢٨.

المبحث الرابع
تاريخ الوحدانية بين القرآن والتوراة والإنجيل

كانت قصص الأنبياء موضع طعون وافتراء من المستشرقين، من ذلك ما زعمه تيودور نودلكه ويصرح بدعواه عن مصدر الوحي القرآني بقوله: (إن المصدر الصحيح للوحي الذي نُزِّل على النبي حرفيًا، .. هو وبدون شك ما تحمله الكتابات اليهودية. ..أن أكثر قصص الأنبياء في القرآن، لا بل الكثير من التعاليم والفروض، هي ذات أصل يهودي،..) [١] وكثير من المستشرقين يدعون ذلك خاصة في دعواهم أن: (قصة يوسف تضيف إلى المعلومات التي وردت في الكتب الدينية تفصيلات خرافية معظمها جاءت من مصادر يهودية) [٢]

يناقض المستشرقون سواء أكانوا يهودًا أم نصارى أنفسهم، عندما يزعمون أن قصص الأنبياء في القرآن ذات أصل يهودي أي من خلال الكتاب المقدس، بيد أننا لو أنعمنا النظر في المقارنة بين القرآن والتوراة في قصص الأنبياء، نجد أن القرآن الكريم يصفهم بصفات الأنبياء الصالحين المصلحين، أما في التوراة (أنبياء الله والموكلين بهداية الناس وتعليمهم الهدى والخير لا يتمتعون بصفات الصالحين و الأتقياء، بل يجد أن العهد القديم ينسب إليهم كثيرًا من المخازي والقبائح التي يتنزه عنها كثير من الناس العاديين) [٣] والأمثلة على ذلك من التوراة الحالية كثيرة جدًا، لا جال لحصرها هنا. [٤]

ولما كانت سورة يوسف من أكثر السور التي أثار المستشرقون شبهة نقلها من التوراة؛ فقد تناولها مالك بالمقارنة التحليلية كما يتبين في المطلب القادم.

---

(١) تاريخ القرآن: تيودور نودلكه، ص ٧.

(٢) الموسوعة البريطانية: الجزء الخامس عشر، مادة قرآن، ص ٣٤١ وما بعدها،

(٣) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية: د.سعود الخلف، ص ١١٠

(٤) راجع مثلًا: سفر التكوين الإصحاح التاسع الجملة ٢٠، حيث يوصف نوح بشرب الخمر والتعري. ووصف لوط بالزنا كما سفر التكوين، الإصحاح التاسع عشر، العبارات من ٣٠-٣٨، وغير ذلك من الأمثلة.

المطلب الأول

العلاقة بين القصص القرآني والقصص التوراتي قصة يوسف عليه السلام نموذجًا ودليلًا.

اهتم مالك بن نبي بالرد على هذه الدعوى من خلال تحليله لما أطلق عليه تاريخ الوحدانية أو التاريخ التوحيدي، والمقصود به (ما يتصل بالأديان المنزلة لا ما يتصل بفكرة الألوهية التي كان العرب ملمين بها في ثنايا إشراكهم بالله، وهو ما تدل عليه الآية الكريمة ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّـــهِ زُلْفَى﴾ (الزمر: جزء الآية ٣) [١]

ويتضح المقصود بتاريخ الوحدانية في قول مالك بن نبي:(لدين إبراهيم تاريخه الذي يضم أعمال الأنبياء ومناقبهم، وربما وجدنا .. التشابه العجيب بين القرآن والكتاب المقدس، فإن تاريخ الأنبياء يتوالى منذ إبراهيم إلى زكريا ويحيى ومريم والمسيح. فأحياناً نجد القرآن يكرر القصة نفسها وأحياناً يأتي بمادة تاريخية خاصة به مثل: هود، وصالح وناقته، ولقمان، وأهل الكهف وذي القرنين..إلخ) [٢]

إذن المقصود بتاريخ الوحدانية عند مالك بن نبي، يندرج تحت ما جاء من قصص للأنبياء و غيرهم مثل أهل الكهف ولقمان.. إلخ، وهو الأمر الذي اتخذه علماء النصارى المعاصرين، سواء كانوا رجال دين أو مستشرقين مجالًا للطعن في القرآن، والتشابه بين القصص التوراتية والقرآن الكريم، أمر لا ينكر، فقد وردت قصص في التوراة، ووردت كذلك في الإنجيل، ومن النماذج التي اهتم بها مالك بن نبي، قصة يوسف عليه السلام بين التوراة والقرآن، ولكي نقدم صورة مفهومة لهذا التشابه (ينبغي أن ننصب اللوحة التي ترينا سائر وجوه التشابه في نظرة

---

(١) د.عبدالصبور شاهين: في هامش ترجمته لكتاب الظاهرة القرآنية، ص ٢١٠

(٢)الظاهرة القرآنية: ص ٢١٠، قال دكتور عبدالصبور شاهين في هامش ترجمته (أما قوله تعالى ويسألونك عن ذي القرنين) (الكهف:١٨) فإن كانت الإشارة فيه إلى اليهود، فربما علموا القصة من أخبار التاريخ، لأن التوراة لم يرد فيها شيء من ذلك.) نفسه ص ٢١٠

واحدة، وسيكفينا لذلك مثال واحد هو (قصة يوسف)، التي سنتخذها مقياسًا لدراستنا النقدية لهذا الموضوع) [١]

و قد قام مالك بجدولة آيات القصة القرآنية في سورة يوسف، وما يقابلها من عبارات (القصة الكتابية) في التوراة الواردة في سِفر التكوين من الإصحاح السابع والثلاثين إلى الإصحاح السابع والأربعين ، ووضح فيه مواضع الاتفاق، ومواضع الاختلاف، وما توسع القرآن في توضيحه، وما لم يرد في التوراة، وما ورد في التوراة ولم يرد في القرآن، و تتبلور نتائج المقارنة بين العناصر المتشابهة في قصة يوسف في التوراة، وفي القرآن، على أساس إبراز الطابع الخاص للقرآن الكريم في المحاور التالية:

١-إن سُدى التاريخ واحد تمامًا في كلتا الروايتين، ولكن لكل منهما عناصر خاصة تميزه، فرواية القرآن تنغمر باستمرار في مناخ روحاني، نشعر به في مواقف وكلام الشخصيات التي تحرك المشهد القرآني، فهناك قدر كبير من حرارة الرح في كلمات يعقوب ومشاعره، فهو نبي أكثر منه أبًا، في التعبير عن يأسه عندما علم باختفاء يوسف، و في تصوير أمله حين يدفع بنيه إلى أن يتحسسوا من يوسف وأخيه. وامرأة العزيز نفسها تتحدث في رواية القرآن بلغة تليق بضمير إنساني وخزه الندم، وأرغمتها طهارة الضحية ونزاهتها على الاستسلام للحق، والاعتراف في النهاية بخطئها، وفي السجن يتحدث يوسف بلغة روحية محلقة، سواء مع صاحبيه، أم مع السجان، فهو يتحدث بوصفه نبيًا يؤدي رسالته إلى كل نفس يرجو خلاصها. [٢]

(١) الظاهرة القرآنية، ص ٢١٠.

(٢) انظر: السابق ص ٢٥٢.

٢– وفي مقابل ذلك نجد الرواية الكتابية تبالغ بعض الشيء في وصف الشخصيات المصرية –الوثنية بالطبع–بأوصاف عبرانية، فالسجان يتحدث بوصفه موحدًا [١]، وفي القسم الخاص بتعبير الرؤيا في القصة يرتسم المجاعة في صورة أقل إجادة، فعبارة التوراة هي (فابتلعت السنابل الجياد) أما في الرواية القرآنية فإنها تعقبها فحسب[٢].

٣– والرواية الكتابية تكشف عن تاريخية تثبت صفة (الوضع التاريخي) مثل الفقرة (لأَنَّ الْمِصْرِيِّينَ لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يَأْكُلُوا طَعَامًا مَعَ الْعِبْرَانِيِّينَ، لأَنَّهُ رِجْسٌ عِنْدَ الْمِصْرِيِّينَ.) [٣] يمكننا التأكيد على أنها من وضع النُساخ الميالين إلى أن يذكروا فترة المحن التي أصابت بني إسرائيل في مصر، وهي بعد زمن يوسف عليه السلام[٤].

٤–وفي رواية التوراة استخدم إخوة يوسف في سفرهم (حميرًا) بدلًا من العير في رواية القرآن، على حين أن استخدام الحمير لا يمكن أن يتسنى للعبرانيين إلا بعد استقرارهم في وادي النيل، بعدما صاروا حضريين، إذ الحمار حيوان حضري عاجز في كل حالة عن أن يجتاز مسافات صحراوية شاسعة لكي يجيء من فلسطين، وفضلًا عن ذلك فإن ذرية إبراهيم ويوسف كانوا يعيشون في حالة الرعاة الرحل، رعاة الأغنام والمواشي[٥].

٥–حل عُقدة القصة يحمل طابع السرد التاريخي في الرواية الكتابية، فهو يشمل في الفصول الأخيرة–التي لم يتطرق إليها تجنبًا للإطالة المملة–عن تفاصيل مادية عن استقرار العبرانيين في مصر، أما في

(١) التوراة: الإصحاح التاسع والثلاثون، جملة ٢٤.
(٢) انظر: الظاهرة القرآنية، ص ٢٥٢–٢٥٣.
(٣) التوراة: الإصحاح الثالث والأربعون، جملة ٣٢.
(٤) انظر: السابق، ص ٢٥٣
(٥) انظر: الظاهرة القرآنية، ص ٢٥٢–٢٥٣.

القرآن فإن هذا الحل يدور حول الطابع المييز للشخصية المحورية: يوسف الذي يختم هذا الختام المنتصر ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (يوسف:١٠٠) (١)

هذه خلاصة مقارنة مالك بين القصتين في التوراة والقرآن، و هذه الاستنتاجات ربما تكفي في إقناع الإنسان المسلم، ولكنها لا زالت مجالًا للطعن في الرسالة القرآنية من جهة المستشرقين وغيرهم من غير المسلمين، وقد اهتم مالك بالدراسات النقدية الموجهة ضد القرآن الكريم في الغرب، فهو يذهب إلى أن الصلة البينة بين بعض القصص في القرآن والتوراة أوحت إلى النقد في جميع العصور بالاعتراضات المختلفة، وقد لخص مالك هذه الاعتراضات في فرضين:

الأول: أن النبي ﷺ قد تشبع –دون علم– بالفكرة التوحيدية، التي تمثلها لا شعوريًا في عبقريته الخاصة، كيما يفيضها بعد ذلك في آيات القرآن.

الثاني: أن النبي قد تعلم الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية، تعلُّمًا مباشرًا، وشعوريًا، لكي يستخدم ذلك فيما بعد في بناء القرآن. ص ٢٥٥

وقد بحث مالك هذين الفرضين من الوجهتين التاريخية والنفسية، وهذا ما أتناول منهج مالك في الاستدلال على دحضه في المبطلبين التاليين.

(١) انظر: الظاهرة القرآنية، ص ٢٥٣–٢٥٤.

المطلب الثاني

الرد على دعواهم أن النبي ﷺ قد تعلم الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية، تعلُّمًا مباشرًا، وشعوريًا، كيما يفيضها بعد ذلك في آيات القرآن.

من أكبر مروجي هذه الافتراءات والمؤسسين لها في الفكر الاستشراقي الغربي تيودور نودلكه، فعلى الرغم من عدم ثقته مما يقدم من آراء، وفقدان المنهجية العلمية لديه، نجده لا يتردد في الجزم بمزاعمه، (ينبغي علينا أن نأخذ بعين الاعتبار التأثير المسيحي على النبي، إلى جانب التأثير اليهودي، ولم نتمكن من تحديد مصدر الكثير من هذه المواد. أما البعض الآخر منها فلاشك في أن مصدره مسيحي..) (١)

يلاحظ أنه يعترف بعدم تمكنه من تحديد مصدر الكثير من المواد المرتبطة بنبينا محمد ﷺ، بل إنه يعبر عن تهافت نتائجه وأقواله باعترافه بأنه (من الصعب جدًا الإجابة على السؤال حول شكل الأدب الديني الذي كان يعرفه اليهود والمسيحيون العرب في ذلك الحين وكميته. من المؤكد أن المسيحيين العرب، كما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد، غالبًا ما كانوا على معرفة سطحية بدينهم..لكن لابد من أن يكون دعاة ديانتي الكتاب قد أخذوا معهم إلى حيث ذهبوا –ولا يمكنني أن أتصور عدم حدوث ذلك –بعض الكتابات الدينية باللغة العبرية أو الآرامية أو الأثيوبية، وربما باللغة اليونانية أيضًا. وقد وجب نتيجة ذلك على رجال الدين اليهود والمسيحيين أن يترجموا الوصايا والصلوات والأناشيد والعظات إلى اللغة العربية) (٢)

وكذلك فشل نودلكه في إثبات دعواه واعتمد على التخمين الذي أوقعه في نتائج غير علمية مثل:

---

(١) تاريخ القرآن: تيودور نودلكه، ص ٨.

(٢) السابق: ص ١٠–١١.

١-(ولا يستبعد أن يحوز رجل وجد في محيطه القريب عشرات من الرجال الذين ستطاعوا القراءة والكتابة...ليس فقط بوصفه تاجرًا ما يحتاجه من هذه الصنعة، ليس فقط من تسجيل البضائع والأسعار و الأسماء، بل أيضًا بسبب اهتمامه بكتب اليهود والمسيحيين المقدسة التي سعي إلى أن يتعمق في معرفتها) [١]

٢-(لابد لنا من أن ننفي إمكانية استعمال محمد مصادر مكتوبة. فهو تقبل أجزاء تعليمه من اليهود والمسيحيين شفويًا على الأرجح..) [٢]

٣-(حتى لو كانت الروايات التي تجمع محمدًا براهب سرياني أو نسطوري تحتوى نواة من الحقيقة، فلا يمكن للقاء كهذا أن يكون ذا أثر بالغ في نبوته. فحتى لو كان محمد سافر إلى سوريا مِرارًا ..لم يكن الضروري لوثني من مكة أن يذهب إلى سورية أو الحبشة ليتعرف على ديانات الوحي..ففي غير غير منها تواجد ما يكفي لهذا الغرض من اليهود والمسيحيين. لقد توفرت إذًا قنوات اتصال عديدة و متنوعة، سرت عبرها المعارف الدينية إلى محمد. لكن اليقين البالغ الحماس الذي امتلكه محمد، واثقًا من رسالته الإلهية لم يدع له إلا مصدرًا فعليًا واحدًا للحقيقة، ألا وهو الله وكتابه السماوي) [٣]

يفكك مالك تلك الدعوى أو الفرض إلى شقين: (أولهما: وجود تأثير يهودي مسيحي في الوسط الجاهلي. ثانيهما: الطريقة التي تسنى بها لهذا التأثير أن يبرز في الظاهرة القرآنية.) [٤] ثم يناقش منطقيًا هذين الجانبين لتلك الدعوى، وتتبلور ردوده من خلال الاعتماد على الاستدلالات الآتية:

(١) السابق: ص١٤، ١٥.
(٢) السابق، ص ١٦.
(٣) السابق: ص ١٦-١٧
(٤) الظاهرة القرآنية: ص ٢٥٦

١–جميع الأبحاث التي توجهت إلى الكشف عن هذا التأثير في البيئة العربية قبل الإسلام لم تأت بأية نتيجة إيجابية، من ذلك ما قام به الآباء اليسوعيون في مستهل القرن العشرين بأبحاث مهمة جدًا في هذا الموضوع، لكي يحددوا مدى إسهام شعراء النصرانية في الجاهلية، ولقد انتهت أبحاثهم بمحصول أدبي عظيم ليس له من النصرانية إلا العنوان المذكور، وقد كان لهذا العمل العظيم نتيجة مفاجئة ذات مغزى، هي أنه قد برهن على عكس ما كان يريد مؤلفوه. والحق أن هذا الواقع القابل للتعديل من هؤلاء المعاصرين الذين انتدبوا للشهادة صراحة في الآيات السابقة سوى انعدام أي تأثير يهودي مسيحي في الحياة الجاهلية، وهو ما أيده القرآن بقوة، وأيدته الأخبار المتواترة. الظاهرة القرآنية. (١)

٢– لو أن الفكرة اليهودية المسيحية كانت تغلغلت حقًا في الثقافة والبيئة الجاهلية فإن من غير المفهوم ألا توجد ترجمة عربية للكتاب للمقدس، ويستدل مالك بن نبي على تلك القضية بأن الشيخ أبوحامد الغزالي (ت ٥٠٥ه) اعتمد في كتابه (الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل) على مخطوط قبطي للإنجيل كيما يحرر هذا الرد، وعنى ذلك أنه حتى القرن الرابع الهجري لم تكن قد وضعت ترجمة عربية، وهكذا لم توجد ترجمة عربية للإنجيل في عصر الغزالي، فمن باب أولى لم يكن يوجد مثل هذه الترجمة في العصر الجاهلي. (٢)

٣–وفيما يخص وجود ترجمة عربية للتوراة يتساءل مالك: وهل كان يمكن أن توجد–بصفة خاصة–ترجمة للعهد القديم (التوراة) ؟ ويجيب مستدلًا بأن (القرآن الذي يذكر لنا صدى ما دار من المجادلة بين النبي ﷺ وبعض أحبار اليهود بالمدينة، يقول مخاطبًا هؤلاء: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (آل عمران: ٩٣) أفليس هذا دليلًا

(١)انظر: السابق: ص ٢٥٦–٢٥٧

(٢)انظر: السابق: ص ٢٥٨–٢٥٩

على أنه لم يكن يوجد من يقرأ العبرية من العرب من ناحية، وعلى أنه لم تكن توجد ترجمة عربية للتوراة من ناحية أخرى؟)[١]

٤-تنعكس صورة البيئة الجاهلية في أدب لغتها المشتركة، وفي أدبها الشعبي الذي يفصح عن أمية عامة، فهي بيئة أميين حسب التاريخي للقرآن﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة:٢) [٢]

٥- نُدرة الوثائق المخطوطة عن هذا العصر، فإن ثروته الفكرية وأدبه الشعبي لم يُحفظا إلا بطريق الرواية المشافهة، ذلك الطريق الذي أوصل جوهر التراث إلى عصور الأدب والعلم الإسلامية.

٦- القرآن الكريم حُجة مخطوطة ذات وثوق تاريخي لا يقبل الجدل، عن العصر الجاهلي، وهي تؤكد مرات كثيرة أن لا وجود لأي تأثير ديني في العصر الجاهلي، ومن أدلة ذلك قوله تعالى﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود:٤٩) و العرض المقارن لقصة يوسف عليه السلام-كماسبق في المطلب السابق- يؤكد خلو البيئة العربية من أي تاريخ توحيدي يهودي نصراني.

٧- لم يثبت أنه كان بمكة أو ضواحيها أي مركز ثقافي ديني، ليقوم بنشر فكرة الكتاب المقدس، وكل ما يمكن أن يذكر هو أن بعض الحنفاء كان لهم تأثير روحي معين على الوسط الذي تشكلت فيه البيئة المحمدية، بل إن النبي ﷺ نفسه كان حنيفيًا قبل بعثته، والآيات التي تذكر عدم علمه بالكتب تنطبق تمامًا على الحنفاء الآخرين، ومع ذلك فإن وجود الحنيفي نفسه كان حالة نادرة في بيئة مشركة في جوهرها. [٣]

(١) السابق: ص ٢٥٩

(٢) الظاهرة القرآنية: ص ٢٥٦

(٣)انظر: السابق: ص ٢٥٨

استنتاج:

وإذن: فأية قيمة منطقية يمكن أن تكون لهذه الآيات والتأكيدات كلها في نظر النبي ﷺ وعاصريه، لو أنها لم تكن سوى تبليغات منافية لواقع هاتيك الأيام؟ (وعليه، فلاشي أقل احتمالًا من وجود تأثير توحيدي في البيئة العربية الجاهلية، لانعدام المصادر اليهودية المسيحية المكتوبة فيها، ليصبح من المستحيل أن نقول بإمكان حدوث (امتصاص لاشعوري) للذات المحمدية، في هذا الوسط الجاهلي.) (١)

المطلب الثالث

الرد على دعواهم أن النبي قد تعلم الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية، تعلُّمًا مباشرًا، وشعوريًا، لكي يستخدم ذلك فيما بعد في بناء القرآن.

هذا الفرض الثاني يُنسِب إلى النبي ﷺ أنه تلقى تعليمًا شخصيًا مباشرًا عن الكتب السابقة للقرآن، ويفكك مالك بن نبي تلك الدعوى إلى احتمالين أو فرضين نفسيين:

أولهما: أن النبي ﷺ ربما تعلم بطريقة منهجية كيما يضع القرآن بعلمه.

وثانيهما: أنه ربما قد تَعَلَّمَ أو عُلِّمَ، ثم استخدم لاشعوريًا المادة التي حصلت في يده. ص ٢٥٩-٢٦٠

والفرض الأول غير محتمل؛ إذا ما اعتبرنا النتيجة العامة عن النبوة، والنتيجة الخاصة عن الذات المحمدية، وهي إخلاص هذه الذات واقتناعها الشخصي، وهو ما تناولته بالتحليل في المحور الأول من هذا المطلب، والفرض الثاني هو التَعَلُّم الشعوري، ثم الاستخدام اللاشعوري لما تعلمه، فهو ما تناولت تحليل ردود مالك عليه في المحور الثاني.

(١) السابق: ص ٢٥٩

المحور الأول: الاستدلال على التفرقة بين ذات النبي ﷺ والوحي، في الرد على قولهم (أن النبي ﷺ ربما تعلم بطريقة منهجية كيما يضع القرآن بعلمه)

في سياق رده على دعاوى الطاعنين، وإظهار جوانب الإعجاز القرآني؛ نجد أن مالك بن نبي يؤسس لهذا الجانب على أسأس أن (مبدأ النبوة يعرض نفسه بفضل شاهده الوحيد –النبي – بوصفه ظاهرة موضوعية مستقلة عن الذات الإنسانية التي تعبر عنه) [١]

وهو يقصد هنا أن النبوة ليست راجعة إلى ذاتية النبي، بل إلى شيء مستقل، وعن العلاقة بين الجانبين الذاتي والخارجي في النبوة يذهب إلى أن المشكلة على وجه التحديد هي معرفة ما إذا كان الأمر يتعلق بأشياء ذاتية محضة كالظواهر الطبيعية مثل المغناطيسة مثلًا التي يمكن ملاحظتها، لكننا لا نستطيع ذلك في ملاحظة ظاهرة النبوة إلا من خلال شهادة النبي، ومحتويات التواترة المنزلة[٢]، (فالأمر يتعلق إذن بمشكلة نفسية من ناحية وتاريخية من ناحية أخرى، ولنا أن نلاحظ وقبل كل شيء أن بعث نبي ما ليس حدثًا فردًا، ليكون غريبًا نادرًا، بل هو على العكس من ذلك ظاهرة مستمرة تتكرر بانتظام بين قطبين من التاريخ، منذ إبراهيم إلى محمد ﷺ واستمرار ظاهرة تتكرر بالكيفية نفسها، يعد شاهدًا علميًا يمكن استخدامه لتقرير مبدأ وجودها؛ بشرط التثبت من صحة هذا الوجود بالوقائع المتفقة مع العقل، ومع طبيعة المبدأ.) [٣]

(إن الأنبياء يمثلون الإنسان في أسمى حالات كماله البدني والخلقي والعقلي، وشهاداتهم الاجتماعية تحظى في نظرنا بالثقة التي تستحقها. وإذن فمن الواجب في المقام الأول أن نلجأ إلى هذه الشهادة،

(١) الظاهرة القرآنية: ص ٨٧
(٢) السابق: ص ٨٧
(٣) السابق: ص ٨٧

لكي نثبت القيمة التاريخية للوقائع التي نخضعها لنقدنا ثم يبقى علينا أن نحلل مجموع هذه الوقائع في ضوء العقل المتحرر من ربقة الشك المطلق الذي لا هدف له.) (١)

التحليل النفسي لشخصية النبي محمد ﷺ:

في تحليله لشخصية النبي محمد ﷺ، لا يعتمد مالك بن نبي على تفاصيل السيرة النبوية كما هي لدي المؤرخين القدامي، أنما في بيانه لجوانب دلائل النبوة –من وجهة نظره– يحدد منهجه في ذلك بقوله: (أما نحن فلا نهتم إلا بتخطيط صورة نفسية لا تهمنا فيها التفاصيل التاريخية، إلا بقدر ما تعيننا على ما نريد تخطيطه.) (٢) وبناء على هذه الرؤية يُقَسِّم مالك بن نبي حياة النبي ﷺ إلى مرحلتين متتابعتين:

الأولى: عصر ما قبل البعثة وهو يمتد إلى أربعين سنة.

الثانية: العصر القرآني وهو يضم كل زمن الوحي، وهو عبارة عن ثلاثة وعشرين عامًا، ومع ذلك فكل من هاتين المرحلتين مطبوعة بحدثٍ رئيسي يُعدُ فاصلًا يقسمهما إلى مرحلتين ثانويتين:

فزواج خديجة رضي الله عنها يُعَدُ في الواقع فاصلًا خطيرًا فيما يتعلق بمرحلة ما قبل البعثة، فنحن نجد في مرحلة ما قبل البعثة نبي المستقبل ينزوي في خلوة روحية، حتى تلك الليلة الخالدة ليلة الوحي. والهجرة هي الفجوة التي تفصل زمن تبليغ الدعوة عن زمن الانتصارات الحربية والسياسية التي فتحت للإمبراطورية الإسلامية الفتية باب التاريخ. (٣)

(١) السابق: ص ٨٨

(٢) الظاهرة القرآنية: ص ١٠٩

(٣) انظر: السابق، ص ١٠٩

والغرض من البحث والتحليل للمرحلتين النبويتين السابقتين، وما فيهما من أحداث تطبع شخصية النبي ﷺ، هو (الكشف عن طبيعة الارتباط بين الذات المحمدية، والظاهرة القرآنية) [١]

الاقتناع الشخصي بالنبوة (مقياسه الظاهري، ومقياسه العقلي):

أولًا: المقياس الظاهري:

هذا عنوان من صياغة مالك بن نبي في إطار بيانه لدلائل الإعجاز في شخصية النبي محمد ﷺ ورسالته، ويقصد به أمرين مهمين: أولهما: الرد على المستشرقين في اعتبارهم الوحي ظاهرة ذاتية للنبي، أي نابعة منه. والثاني: أن دراسات هؤلاء المستشرقين لا تتلقي على ظاهرة الوحي شهادة الذات المقترنة بها و هي النبي -ﷺ- نفسه، بمعنى أن شهادة النبي شرطًا يجلي مشكلة الوحي النفسية.

ويقول في مقدمة هذا الموضوع (يبدو أن الكُتاب المحدثين لم يأخذوا في اعتبارهم-أثناء تحليلهم الظاهرة القرآنية-حقيقة نفسية جوهرية هي: اقتناع النبي الشخصي. ومع ذلك فإن من الواضح أن انفراد النبي بكونه الشاهد الوحيد المباشر على الظاهرة، يخلع على هذه الحقيقة قيمة استثنائية خاصة.) [٢]

ودراسات المستشرقين والطاعنين في الوحي (تعكس تناقضًا مزدوجًا، فهي من ناحية تعد الوحي ظاهرة ذاتية، قولًا واحدًا، ومن ناحية أخرى لا تتلقى على هذه الظاهرة شهادة الذات المقترنة بها اقترانًا تامًا) أي شهادة النبي ﷺ، بأن ما يتلقاه وحي لا مرية فيه.[٣]

(١) الظاهرة القرآنية: ص ١١٠

(٢) السابق: ص ١٤٨

(٣) السابق: ص ١٤٨

ويقصد مالك بن نبي بالمقياس الظاهري الرد على الطاعنين في الوحي للرسول ﷺ، متخذين الأعراض التي كانت تظهر عليه مثارًا للنقد، حيث (تعجل بعض النقاد حين ألموا بهذه الدلائل النفسية فعدوها أعراضًا للتشنج، هذا الرأي يشتمل خطأً مزدوجًا حين يتخذ من الأعراض الخارجية مقياسًا يحكم به على الظاهرة القرآنية في مجموعها، ولكن من الضروري أن نأخذ في اعتبارنا قبل كل شيء الواقع النفسي المصاحِب، الذي لا يمكن أن يفسره أي تعليل مَرَضِي.) (١)

يرفض مالك بن نبي ما يذهب إليه المستشرقين، والطاعنين في إمكانية الوحي للنبي محمد ﷺ، مفندًا أقوالهم بالآتي:

١–إذا نظرنا إلى حالة النبي ﷺ، وجدنا أن الوجه وحده هو الذي يحتقن، بينما يتمتع النبي بحالة عادية، وبحرية عقلية ملحوظة من الوجهة النفسية، ليستخدم ذاكرته استخدامًا كاملًا خلال الأزمة نفسها، على حين يُمحى وعي المتشنج وذاكرته خلال الأزمة، فالحالة بناء على هذه الملاحظات ليست حالة مرض كالتشنج.

٢–الأعراض الجسمية التي رويت عن النبي ﷺ، لا تظهر إلا في اللحظة التي تعتريه فيها الظاهرة القرآنية، وفيها وحدها، أي في اللحظة الخاطفة للوحي. هذا التلازم الملحوظ بين ظاهرة نفسية في أساسها، وحالة عضوية معينة، هو الطابع الخارجي المميز للوحي. (٢)

(١) السابق: ص ١٥٣

(٢) الظاهرة القرآنية: ص ١٥٤

من خلال التفرقة بين وعي المتشنج الذي يذهب بسببه عقله، ووعي النبي ﷺ أثناء نزول الوحي عليه، يدافع مالك عن الوحي الإلهي للنبي، وهو أمر متفق عليه عند علماء الإسلام.

ويستدل مالك بن نبي بما ورد في السنة عن أحوال النبي ﷺ عند تنزل الوحي عليه، فأصحابه رضوان الله عليهم استطاعوا أن يلاحظوا (كلما نزل الوحي شحوبًا مفاجئًا، يتبعه احتقان في وجه النبي وهو نفسه يدرك ذلك، ولذا يأمرهم بأن يلقوا على وجهه سترًا كلما طرأت الظاهرة، ألا يعني هذا الاحتياط أن هذه الظاهرة كانت مستقلة عن إرادة النبي ﷺ، حتى يصبح عاجزًا مؤقتًا عن أن يغطي وجهه بنفسه، وهو يعاني حالة متناهية الإيلام، كما روت السيرة.) [1]

ومن النصوص الواردة في ذلك ما جاء صحيح البخاري حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا هَمَّامٌ، حَدَّثَنَا عَطَاءٌ، قَالَ: حَدَّثَنِي صَفْوَانُ بْنُ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ – يَعْنِي- ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ بِالْجِعْرَانَةِ، وَعَلَيْهِ جُبَّةٌ وَعَلَيْهِ أَثَرُ الخَلُوقِ – أَوْ قَالَ: صُفْرَةٌ –، فَقَالَ: كَيْفَ تَأْمُرُنِي أَنْ أَصْنَعَ فِي عُمْرَتِي؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسُتِرَ بِثَوْبٍ، وَوَدِدْتُ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الوَحْيُ، فَقَالَ عُمَرُ: تَعَالَ أَيَسُرُّكَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ الوَحْيَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَرَفَعَ طَرَفَ الثَّوْبِ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ – لَهُ غَطِيطٌ، – وَأَحْسِبُهُ قَالَ: كَغَطِيطِ البَكْرِ –فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْهُ قَالَ: «أَيْنَ السَّائِلُ عَنِ العُمْرَةِ اخْلَعْ عَنْكَ الجُبَّةَ، وَاغْسِلْ أَثَرَ الخَلُوقِ عَنْكَ، وَأَنْقِ الصُّفْرَةَ، وَاصْنَعْ فِي عُمْرَتِكَ كَمَا تَصْنَعُ فِي حَجِّكَ) [2]

(١) السابق: ص ١٥٣

(٢) صحيح البخاري: كتاب العُمرة، باب يفعل في العمرة ما يفعل في الحج، حديث رقم ١٧٨٩.

ثانيًا: المقياس العقلي:

ويقصد به مالك بن نبي، الاستدلال العقلي على صحة الوحي ويقينيته بوصفه حالة تكون للنبي على غير إرادة منه، وبوصفه كلام الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، و يمكن تحليل استدلاله ورده على الطاعنين في الوحي، في المحاور التالية:

١–أُميَّة النبي ﷺ: بمعنى أنه ليس لديه من معرفة البشر سوى ما يمكن أن يمنحه له وسَطَه الذي ولد فيه، الوسط الفروسي الوثني البدوي، الذي لا مجال فيه مطلقًا للمشكلات الاجتماعية والغيبية (الميتافيزيقة)، فإن معارف العرب عن الحياة الاجتماعية والفكرية لدى الشعوب الأخرى ليست بذات قيمة، إذا ما رجعنا إلى الشعر الجاهلي الذي يعد مصدرًا قيمًا للمعلومات في هذا الموضوع. (١)

ومقصد مالك بن نبي من استدلاله بأمية النبي ﷺ، ليست مجرد عدم معرفته بالقراءة فقط، بل أمية المجتمع من جهة الاعتقاد، ومن جهة علاقة الحياة الاجتماعية بالإيمان بالغيب من جانب، وعلاقتها المعرفية بالأمم الأخرى من جانب آخر، فالنبي ﷺ (في ذهابه إلى غار حراء، لم يكن لديه سوى ذلك المتاع العادي من الأفكار الشائعة في وسطه البدائي) (٢)يؤيد ذلك أمر الله لنبيه ﷺ، في كلمة (إقرأ) وهي الكلمة الأولى للوحي التي كان لها تأثيرها الشديد على النبي ﷺ، إذ هو أُمي، وهذا الأمر بطبيعة الحال يُحدِثُ تغييرًا في كيانه. (٣)

٢–انقطاع الوحي فترة من الزمن: هذا الانقطاع يعتبره مالك بن نبي، من الجوانب الدالة على إثبات عدم ذاتية الوحي، وهو من المسائل

(١) الظاهرة القرآنية: ص ١٥٤، ١٥٥

(٢) السابق: ص ١٥٥

(٣) السابق: ص ١٥٥

التي يستدل بها، أو يبرهن بها للطاعنين القائلين بذاتية الوحي، وأنه ليس من عندالله. وعند عودة نزول الوحي (ويأتيه بالكلمة العليا الوحيدة التي هي بلسم الشفاء...كلمة الله. لقد أشرقت أسارير النبي، إذ هو يملك منذ الآن البرهان الأدبي و العقلي على أن الوحي لا يصدر عن ذاته، ولا يوافيه طوع إرادته، ..لا يمكن أن يخضع له، كما لا تخضع له أفكار الآخرين و كلماتهم، ولديه الآن برهان موضوعي إلى أقصى درجة على صحة اقتناعه الجديد) (١)

٣-اليقين بالوحي: كان لفترة انقطاع الوحي عن النبي ﷺ أثرها النفسي عليه، ما بين انتظار حزين لعودة الوحي، وابتهاج مفاجيء، زالت معه ظلال الريبة والشك الذي عاناه النبي ﷺ والذي انتهي باليقين النهائي (وفي هذا التحول نرى أثر التربية السامية، التي تعين رسول الله على أن يتحقق تدريجيًا في نفسه من حقيقة الظاهرة القرآنية، يعينه على ذلك تكيف مستمر لضميره الواعي، وكأنما أُريد إعداده منهجيًا للاقتناع الضروري اللازم لدعوته، فأبلغه الوحي منذ البداية خصائص هذه الدعوة العظمى، كما تدل عليه الآية﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ (المزمل:٥) وإن صدق هذه الإرادة العليا التي تملي تلك الكلمة ليتجلى أمام عينيه شيئًا فشيئًا، فإذا بشكه يخلي مكانه للاقتناع الجديد..وهو اقتناع يتجلى في محاوراته الأولى مع قريش، لقد تبدلت حال نفسه فأصبح يثق في ذاته، وينزل الوحي لكي يعكس على نظرنا حاله النفسية الجديدة، ويؤكد هذا الاقتناع الظافر بقوله: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ

(١) السابق: ص ١٥٦

﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ (النجم: ١–١٣) (١)

تتجلى مواطن الاستدلال العقدي لدى مالك بن نبي في استدلاله بالقرآن الكريم على الفصل بين ذاتية النبي (الشخص) من جهة، والنبي الموحى إلى الله من جهة أخرى، وفي ذلك رد على المستشرقين القائلين بذاتية الوحي، ردًا عقليًا من خلال بيان أميته من جهة، و ضحالة ثقافة المجتمع المحيط به على مستوى العقائد والأفكار من جهة أخرى.

المحور الثاني: الرد على دعواهم (أنه ربما قد تَعَلَّمَ أو عُلِّمَ، ثم استخدم لاشعوريًا المادة التي حصلت في يده).

يرفض مالك بن نبي ويفند دعوى الاستخدام اللاشعوري لمادة تعلمها أو عُلِّمها النبي ﷺ، كأنه (حالة إدراك منسية لدى المتعلم نفسه) والأمر في هذه الحالة يتعلق في –جملته– بظاهرة نسيان جد غريبة(٢). و يمكن بلورة ردود مالك واستدلالاته في دحض هذه الدعوى وما يرتبط بها من محاججات في العناصر التالية:

١–جميع تفاصيل حياة النبي الخاصة والعامة تشهد بالتكامل في شخصيته، وخاصة ذاكرته التي كانت خارقة لكل اعتبار، حتى في حالة التلقي التي كان يعانيها خلال لحظات الوحي، لقد كانت ذاكرته تعمل وقد كان هو الحافظ الأول للسور التي كان يرتلها عن ظهر قلب في لحظاته الأخيرة. وبناء على ذلك فإن هذه الذاكرة السمعية البصرية الخارقة التي عُرِف بها النبي والقائد ﷺ لا يمكن أن تتفق مع مرض الذاكرة بالنسيان، كما يدعي الطاعنون، بل يقتصر النسيان –حسب دعواهم–على تذكر مصدر تعلمه الكتب، وطريقته في أن يستخدمها

(١) السابق: ص ١٥٦

(٢) الظاهرة القرآنية: ص ٢٦٠

لاشعوريًا، وربما كان هذا النسيان الذي يدعونه أغرب عندما يتذكر موضوع هذا التعلم تذكرًا كاملًا [1]كسورة يوسف مثلًا. [2]

مع ملاحظة أن هذا الموضوع وهو التشابه في بعض قصص القرآن مع التوراة، لا يأتي في صورة نسخة مكررة من التوراة، بل بينهما خلاف في الأسلوب وفي الإطار الروحي والمادي لكل منهما، في كثير من المواضع التي تميز القرآن ببيانها.كما سبق توضيح ذلك في المطلب الأول من هذا المبحث.

٢-مما يثبت بطلان دعواهم؛ أن المصادر العربية للتعليم غير موجودة إطلاقًا-كما سبق بيان ذلك في الرد على الفرض الأول- وإذن فلقد كان من الواجب على النبي ﷺ أن يكيف موضوع تعلمه المستقى من مصدر أجنبي بالضرورة، ويعدله ليوافق التعبير القرآني، وذلك باختبار سابق للألفاظ العربية، ولم يكن من المستطاع أن يحدث هذا التعديل تلقائيًا، دون أن تشترك فيه القدرات الشعورية للنبي، لهذا تتناقض دعواهم بين زعمهم حالة نسيان مرضي، وحالة لاشعور جزئي. [3]

٣- أما من التاريخية، فإذا كان المصدر الأجنبي قد وُجِد لتعليم النبي ﷺ، فإنه لن يكون سوى مصدر شفهي غير مكتوب لكي يكون في متناول أُمي، وربما كان هناك في هذه الحالة مُلَقِن ما يهمس دائمًا إليه -دون علمه- بكل ما يتصل بدعوته. وإن الطابع الخاطيء لافتراض

(١) قال الإمام جلال الدين أبي عبدالرحمن السيوطي (ت٩١١ه)، (أخرج بن جرير عن ابن عباس قال: قالوا يا رسول الله لو قصصت علينا، فنزل ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ (يوسف:٣) وأخرج بن مردويه عن ابن مسعود مثله.) انظر: السيوطي: أسباب النزول المسمي لباب النقول في أسباب النزول، ط١- بيروت-١٤٢٢ه، ٢٠٠٢م.

(٢) الظاهرة القرآنية: ص ٢٦٠

(٣) السابق: ص ٢٦١

كهذا ليقف في مواجهة واقعين لا يقبلان المناقشة، هما القيمة القرآنية، وقيمة الذات المحمدية. (١)

استنتاج:

تنتهي مناقشة الفرض أو الدعوى من خلال ما سبق إلى:

١–تناقض تاريخي ونفسي، يضطرنا إلى أن نستنتج أن وجوه الشبه الملحوظة لا تُعزى إلى تأثير يهودي مسيحي ذاع في البيئة الجاهلية، ولا إلى تَعَلُّم شخصي أو لا شعوري لشخص النبي.(٢)

٢–هذه النتيجة القائمة على ملاحظة وجوه الشَبه، تتحتم أكثر من ذلك حين نأخذ في اعتبارنا صفات القرآن الخاصة، والحق أنه حتى في تاريخ الوحدانية الذي تتوثق فيه القرآبة بين القرآن والكتاب المقدس؛ يؤكد القرآن استقلاله بعلائم مميزة كثيرة، كتلك التي كانت في مقارنة ما جاء بسورة يوسف(٣)، ومن الأمثلة التي يستدل بها مالك –أيضًا–استقلال الرواية القرآنية تمام الاستقلال، عن الرواية الكتابية التي ترى في صلب المسيح عليه السلام حقيقة تاريخية، فإذا بالقرآن يؤكد في هذا الموضوع: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ (النساء:١٥٧) هذه الرواية الأصلية في القرآن لا تتفق مع أية وثيقة يهودية مسيحية، ومن جهة أخرى تترك مخطوطات المسيحيين الأُول الباب مفتوحًا لجميع الفروض عن نهاية المسيح وعن مدة رسالته(٤). وهكذا يمكن أن نتتبع خطوة خطوة الفكرة القرآنية، والفكرة الكتابية، لنجد فيها فيما يتصل بالأصول التاريخية

(١) السابق: ص ٢٦١
(٢) السابق: ص ٢٦١
(٣) السابق: ص ٢٦٢
(٤) الظاهرة القرآنية: ص ٢٦٥

موضوعات مشتركة لا تنكر، ولكنا نجد أيضًا كثيرًا من نقاط التباعد والاختلاف[١].

هذه مجرد أمثلة للاستدل على مخالفة القرآن الكريم للروايات الكتابية الحالية التي يُزعم أن النبي محمد ﷺ أخذ بها تعلمًا وعبر عنها شعوريًا أو لا شعوريًا في القرآن الكريم، وقد ثبت تهافتها أما التحليلات السابقة التي قدمت مختصرها التحليلي كذلك في هذا المبحث وما سبقه.

تعقيب:

يؤكد مالك بن نبي على أن الآثار الفكرية لآراء المستشرقين في العالم الإسلامي لم تنته بل إن (بعض المشارقة المتتلمذين للمستشرقين يخفون عملهم التخريبي ضد الإسلام، بإيعاز واضح من أوساط استعمارية، تحت رداء تقدمية جوفاء تحاول سلب الإسلام من كل قيمه الحضارية، بل تنسب له حالة التخلف الراهنة في العالم الإسلامي.) [٢]

بعد هذه البحث في منهجية مالك بن نبي في الرد والاستدلال على بعض القضايا ذات الصلة بالقرآن الكريم، يجدر بي التذكير بأن دعاوى المستشرقين ضد الإسلام لم تنته من الدراسات الاستشراقية في الغرب، ولم يستفذ الاستشراق اغراضه في العالم الإسلامي؛ لارتباطه بالأهداف السياسية للدول الغربية، ولارتباطه بمحاربة الدين الإسلامي (ومهما زعم الزاعمون أن الاستشراق قد انتهى فالأمر الحقيقي أن الاهتمام الغربي بالإسلام لم يضغف ولم يتوقف وإنه ليس بسبيله إلى الانقراض) [٣]

وتعتمد الجامعات الغربية في الدراسات الإسلامية على كتابات المستشرقين القدامي (فإن الغربيين رغم اتصالهم بمراكز البحوث والجامعات العربية الإسلامية، وتعرفهم على كل ما ينشر في العالم

(١) السابق: ص ٢٦٥

(٢) إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث: مالك بن نبي، ص ٢٣ ، ط١، دار الإرشاد، بيروت، ١٣٨٨ه، ١٩٦٩م.

(٣) هل انتهى الاستشراق حقًا: مازن مطبقاني، ص ٢٠٢-المدينة المنورة- دت.

العربي الإسلامي لكنهم لا يقدمون هذا الإنتاج إلى طلابهم في الجامعات الغربية، بل يصرون على استمرار الاعتماد على كبار المستشرقين؛ من أمثال: جولدزيهر، ومارجليوث، وشاخت، ونولدكه، ..وغيرهم) [١]

لهذا فإن تناولي لتحليل مالك بن نبي لهذه الآراء الاستشراقية يقدم نموذجًا لإسهامات العلماء المسلمين في تناول قضايا الاستشراق.

(١) السابق: مازن مطبقاني، ص ٢٠٤

الخاتمـــــــــــــــة

تبيَّن أن منهجية الاستدلال عند مالك بن نبي لـم تخـرج عـن المصادر التي يستقي منها أهل السنة والجماعة مسائل الاعتقاد، سـواء الأساسية منها؛ الكتاب والسنة والإجماع. أم المصـادرالثانوية وهـي؛ العقل الصحيح، والفطرة السليمة. و كان الاعتماد الأساسي-مع بـاقي المصادر- القرآن الكريم من حيث الاعتماد على أدلته من جهة، والدفاع عن موثوقيتها وحُجيتها من جهة أخرى، وأن منهجه يخلو مـن الآثـار الاستشراقية أو العلمانية في الموقف من القرآن والسُنة.

واتضح أن الجوانب العقائدية التي تناولها مالك بـن نبـي هـي الموضوعات التي ترتبط بإثبات النبوة والوحي، وليست الموضـوعات التقليدية في العقيدة الإسلامية، فكان انشغاله منصبًا على الـدفاع عـن الإسلام و رد شبهات المستشرقين حول القرآن الكـريم، وإثبـات دور القرآن الكريم عقيدة وشريعة في النهضة الحضـارية الإسـلامية فـي الماضي، و دوره في نهضتها في الحاضر.

وتبين أن مصادر التلقي لمنهجية الاستدلال عند مالك بن نبي تقوم في أساسها على القرآن والسنة، بالتسليم المطلق والإيمان اليقيني، فلـم يعارضها بعقل ولا ذوق، ولا ضـرب للنصـوص بعضـها بـبعض. ولا لجوء إلى الأساليب الكلامية العقيمة، أو الفلسـفية المجـردة عـن الوحي، أو الخطابية الوعظية الخالية من بناء اليقين العقدي.

و كذلك اعتمد على الاطلاع على الجانب التاريخي في الجزيرة العربية سواء قبل الإسلام أم بعده، وكـذلك الاطـلاع علـى التـوراة والإنجيل الحاليين، وكذلك تعتمد على الاطلاع على كتابات المستشرقين واستيعاب شبهاتهم وفهمها والرد عليها.

لهذا يجب أن تتغير هواجس بعض الدعاة والعلماء و الباحثين في الدراسات الإسلامية، الذين يظنون أن دراسة مناهج علماء الإسلام في الرد على المستشرقين ومناهجهم ليست لها قيمة إيجابية، أو أنها تُسـهِم في نشر أفكارهم وتمكن لها، أو أن الدراسات النقدية لشبهات ومفتريات

المستشرقين تؤدي إلى الوقوع فيها، لذا فتركها أفضل سداً للذريعة !! وهذا من الهواجس والأوهام التي يجب التخلص منها، لأنه بالنظر إلى المآلات التي تترتب على تلك المقولات نجد أن لها آثارًا سلبية واضحة على ثقافة المجتمعات المسلمة لأن غلاة العلمانيين المعاصرين ينطلقون من تلك المقولات الاستشراقية، وهم ليسوا مجرد مجموعة من الكُتاب أو المثقفين، بل هم تكتل عريض منتشر في بلاد الإسلام على مستوى التنظير والممارسة، و كان منهم ولازال أساتذة في الجامعات، ولهم جمهورهم من التلاميذ والمريدين، المقتنعين بأفكارهم والمروجين لها، في الجامعات، والمراكز الثقافية، والنوادي الأدبية، والمؤلفات، والصحف، والفضائيات، ومواقع التواصل الاجتماعي–لو أنها لم تنتشر – لما تناولناها بنقد أو دراسة.

تم استنتاج أن مالك بن نبي قد استوعب مقالات المستشرقين في عصره– والتي لا زالت منتشرة إلى الآن– و عبر هنا ثم قام بتحليلها و إرجاعها إلى أصولها الفكرية التي نبعت منها، ثم بين مخالفتها للمنهج العلمي الصحيح القائم على المنهج العقلي في القرآن الكريم المطالِب بالبرهان من جهة، والقائم على العقل والمنطق العلمي والتاريخي من جهة أخرى.

ومن خلال هذا البحث أو تلك المحاولة البحثية؛ يتوجب ضرورة الانتقال من الردود الوعظية السِجالية، إلى التقصي والحفر الأركيولجي (المعرفي) في أصول المزاعم الاستشراقية؛ لبيان بطلان الأسس النظرية التي قامت عليها على مستوى المنهج، وعلى مستوى الأفكار المنبقة منه، وأن يكون جانب التحليل والتفكيك لتلك المزاعم والأفكار المخالفة بغية بيان بطلانها، على أسس شرعية منهجية، دون الارتكاز على الوعظ التقليدي الذي يركز على الحكم على عقيدة المخالفين دون تفنيد ودحض لأقوالهم

اتباعًا للمنهج القرآني الذي يُطالب بالدليل ويقوم على البرهان، كما في قوله تعالى:﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّـهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (القصص: ٧٥)

ولهذا من المفترض والواجب شرعاً وعقلاً؛ على علماء أهل السنة المعاصرين؛ بيان الطرح الإسلامي الصحيح لمنهجية الاستدلال العقدي في الرد على المستشرقين، ويعتبر منهج مالك بن نبي في الرد على مزاعم المستشرقين –على مستوى النقد والتحليل والاستدلال –من المنهجيات المشوقة للاطلاع والفهم والمدارسة للباحثين وطلاب العلم في العقيدة والفكر الإسلامي، في صورة جذابة ؛ حتى لا تستهويهم مخاتلات محمد عابدي الجابري، ولا مخادعات محمد اركون !!، و لا جماليات حسن حنفي !!، بل لابد لعلماء أهل السنة من منطلقات و منهجيات موسعة في بيان أقوال المستشرقين واستقصاء الجهود العلمية النقية من شوائب العلمانية في التفنيد والتقعيد لمنهجية الرد والدحض والاستدلال.

يوصي الباحث زملائه من طلاب العلم، و الباحثين المتخصصين بتتبع مناهج استلال علماء الإسلام في العصر الحديث في الرد على المستشرقين، ومناهجهم في مقارنة الكتب المعاصرة لليهود والنصاري بالقرآن الكريم، ونقدهم التحليلي المقارن لافتراءات ونقد منهجيتهم في الاستدلال على مزاعمهم، كما يوصي بتتبع ترجماتهم التفسيرية للقرآن وجمعها ودراستها نقداً وتحليلاً وتركيباً، في ضوء منهج أهل السنة والجماعة، وضوابط التأويل لديهم.

وهذا البحث حاول بيان أهم معالم المنهج الاستدلالي لدى مالك بن نبي، بيد أنه لازال هناك نواحٍ كثيرة لمنهجية الاستدلال لديه في دور القرآن الكريم في التنمية الحضارية للأمة أرجو الله أن أتمكن من استكمالها في حلقة أخرى موسعة لهذا العمل بتوفيقه جل وعلا، والله أسال أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن وأن ينفع به.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العامين.

أهم المصادر والمراجع

-إعجاز القرآن: لأبي بكر محمد الطيب الباقلاني (٣٣٨-٤٠٣ه) ، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م

-الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: د. مصطفى السباعي، ص ٢٧-٢٨، دار الوراق، القاهرة، د ت.

-الإسلام: ألفريد جيوم ، ترجمة: مصطفى هدارة، و د.شوقي اليماني السكري، ط١،مطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة، ١٩٥٨م.

-الإحكام في أصول الأحكام : للآمدي(سيف الدين أبي الحسن على بن أبي على بن محمد) ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٠ه، ١٩٨٠م.

-إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث: مالك بن نبي، ط١، دار الإرشاد، بيروت، ١٣٨٨ه، ١٩٦٩م.

-تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان، ترجمة وتحقيق وتعليق: د.عبدالحليم النجار، ط٥، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩م.

-تاريخ القرآن: تيودور نودلكه، ترجمه عن الطبعة الألمانية الثانية التي عدلها فرديش شفالي:د.جورج تامر، بالتعاون مع فريق عمل مكون من:عبلة معلوف، و د. خير الدين عبدالهادي، د.نقولا أبو مراد، ط١، بيروت، ٢٠٠٤م. مع ملاحظة أنه فريق عمل استشراقي، يكرس للمزاعم الاستشراقية عن القرآن ويدافع عنها.

-حديث عن القرآن: د.عبدالصبور شاهين، دار أخبار اليوم، القاهرة، ٢٠٠٠م.

-دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية: د.سعود الخلف، ط٥، دار أضواء السلف، الرياض،١٤٢٧ه، ٢٠٠٦م.

-الظاهرة القرآنية: مالك بن نبي، تقديم: د. محمد عبدالله دراز، الشيخ. محمود شاكر، ط٤، دار الفكر، دمشق،١٩٨٧م، وإعادتها ١٤١٢ه،

١٩٩١م.
-العربية لغة العلوم والتقنية: د.عبدالصبور شاهين، ط٢، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٦م.
-العلم والبحث العلمي دراسة في مناهج العلوم: د.عبدالحميد رشوان، ا، المكتب الجامعي، الإسكندرية، د.ت.
-فكرة إعجاز القرآن من البعثة النبوية حتى العصر الحاضر، د. نعيم الحمصي، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠ه، ١٩٨٠م.
-في صحبة مالك بن نبي دراسة جامعة لحياته وإنتاجه في مراحلها الثلاث، الجزء الأول الميلاد والنشأة والإنتاج الفكري: عمر كامل مسقاوي، والجزء الثاني (هجرة إلى القاهرة ومرحلة الثورة الجزائرية، العائد إلى الجزائر مرحلة الاستقلال، ط١، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤٣٤ه، ٢٠١٣م.
-كتاب المصاحف: (للحافظ أبي بكر عبدالله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، المتوفى سنة ٣١٦ه) تحقيق :آرثر جفري، ط١، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٣٥٥ه، ١٩٣٦م.
-لباب النقول في أسباب النزول: الإمام جلال الدين أبي عبدالرحمن السيوطي (ت٩١١ه)،(أسباب النزول المسمي لباب النقول في أسباب النزول)، ط١- بيروت-١٤٢٢ه، ٢٠٠٢م
-مالك بن نبي حياته وفكره: د.عبدالله بن حمد العويسي، ط١، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ٢٠١٢م.
-مذاهب التفسير الإسلامي: إجنتس جولدتسهر، ترجمة: د. عبدالحليم النجار، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٤٧ه، ١٩٥٥م.
-مذكرات شاهد القرن (القسم الأول ١٩٦٩م): مالك بن نبي ص ط٢، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

–منهج البحث في العلوم الإسلامية: د.محمد الدسوقي، بيروت، دار الأوزاعي، ١٩٤٨م.
–منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند اهل السنة والجماعة:د.عثمان علي حسن، ط٥، مكتبة الرشد، الرياض ١٤٣٧ه،٢٠٠٦م.
–موسوعة لالاند الفلسفية: أندريه لالاند، تعريب: د.خليل أحمد خليل، ط٢،منشورات عويدات، بيروت، باريس، ٢٠٠١م، ٣مج.
–النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن: د.محمد عبدالله دراز، تقديم: د.عبدالعظيم المطعني،تحقيق: أحمد مصطفى فضلية، ط٩، دار القلم، القاهرة، ١٤٢٦ه، ٢٠٠٥م.
–هل انتهى الاستشراق حقًا: مازن مطبقاني، –المدينة المنورة– دت.